

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور عبد الوهاب محمد المسيرى

الأكاذيب الصهيونية

من بداية الأستيطان حتى انتفاضة الأقصى

دار المعارف

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
[٦٦١]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف :   منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

دكتور عبد الوهاب محمد المسيرى

الأكاذيب الصهيونية

من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الأقصى



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

مقدمة

ثمة مصطلحات ومفاهيم كثيرة اخترقت خطابنا السياسى مثل «الشعب اليهودى» و«الخصوصية اليهودية» و«المنفى» و«ارتباط اليهود الأزلى بأرض الميعاد»، وقد التبست بعض الظواهر فى أذهاننا بحيث زالت الحدود بين الصهيونية واليهودية والمسيحية حتى أصبحنا نتحدث عن الصهيونية المسيحية. وقد وصل الاختراق درجة أن الكثيرين لايستطيعون تصديق أن الصهيونية فى حالة أزمة، وأن الانسحاب الصهيونى من جنوب لبنان ثم انتفاضة الأقصى قد تركا جرحا غائرًا فى الوجدان الصهيونى / الاسرائيلى.

والدراسات التى يضمها هذا الكتاب هى محاولة لتفكيك وإعادة تركيب بعض هذه المفاهيم والمصطلحات، حتى تتعمق رؤيتنا للعدو الصهيونى، وحتى ندرك مواطن قوته وضعفه، ومن ثم يمكننا تحسين مقدرتنا على التنبؤ بسلوكه والتصدى له. والفصلان الأول والثانى يتناولان مفهومين محوريين صهيونيين: «الشعب اليهودى» و«الخصوصية اليهودية»، ويبينان أنه لا أساس لهما فى الواقع. ويتناول الفصلان الثالث والرابع جانبًا مهمًا من الظواهر اليهودية والصهيونية لم يتم التصدى له بما فيه الكفاية، وهو البُعد الديموجرافى وكيف يوظف الصهاينة الأرقام لترويج مفاهيمهم، أما الفصلان الخامس والسادس

فيتناولان المفهوم الذى شاع مؤخرا «الصهيونية المسيحية» ومعاداة اليـهود التى يقال لها معاداة السامية. أما الفصول الثلاثة الأخيرة «الثامن والتاسع والعاشر» فتتناول بعض معالم الأزمة الصهيونية وأسباب تفاقمها.

وبعد - تشكل هذه الدراسات اجتهادًا أوليًا يحتاج إلى مزيد من التطوير والتمحيص. ونحن نؤمن أن الاجتهاد لابد وأن يسبق الجهاد وأن الواقع يتغير من حولنا بسرعة، ولذا لابد أن يواكبه اجتهادات مستمرة من جانبنا. فالاجتهاد عملية مفتوحة لا نهاية لها، ومن اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد ولم يصب فله أجر واحد. والمهم هو أن نستمر فى الاجتهاد والجهاد.

والله أعلم .

دمنهور القاهرة- يناير ٢٠٠١ **دكتور عبد الوهاب المسيرى**

الفصل الأول

يهود أم جماعات يهودية

يتصور كثير من الدارسين أن كلمة (يهودى) دال له مدلول واضح ومحدد يشبه في وضوحه وتحدده دالاً مثل «ألمانى» . فالألمانى هو فرد ينتمى إلى الفرع النوردى من الجنس الأبيض من الناحية العرقية، وإلى الحضارة الغربية من الناحية الحضارية العامة، وإلى الثقافة الجرمانية من الناحية الإثنية. وهو يتحدث الألمانية، وينتمى إلى الشعب الألمانى. والعناصر المشتركة بين أفراد هذا الشعب كثيرة ومهمة، ولذا فهى ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية تفوق بمراحل العناصر غير المشتركة بينهم (تعدد اللهجات - تنوع الألوان المحلية - انقسامهم إلى طبقات).

ولذا يتحدث كثير من الدارسين عن اليهود وكأنهم كتلة واحدة متماسكة ومتجانسة فعلاً، ويتم التعبير عن هذا بكلمات مثل كلمة «جورى Jewry » الإنجليزية التى تعنى «اليهود باعتبارهم كُلاً متماسكًا»، ويصبح افتراض الوحدة والتماسك والتجانس أكثر وضوحا حينما يتحدث الباحث عن اليهود باعتبارهم «الشعب اليهودى» و«الأمة اليهودية» وهو ما يعنى أن اليهود ينتمون إلى تشكيل حضارى واحد، وأن لهم تاريخا واحدا، ومصيرا واحدا، ومستقبلا واحدا، وربما

عرقا واحدا وانتماءً ثقافيًا واحدًا، وأن مصالحهم واحدة وتطلعاتهم واحدة، وأن العناصر المشتركة بين يهود العالم أكثر أهمية من العناصر غير المشتركة.

والسؤال الذى يطرح نفسه: إذا كان ثمة عناصر مشتركة بين يهود العالم، فما هى ؟ وهل هذه العناصر المشتركة أكثر تفسيرية وأهمية من العناصر غير المشتركة؟

التاريخ اليهودى

لنأخذ، على سبيل المثال، فكرة «التاريخ اليهودى» الذى هو مصطلح يفترض وجود تاريخ يهودى مستقل عن تواريخ جميع الشعوب والأمم، وهو مفهوم تتفرع عنه وتستند إليه مفاهيم الاستقلال اليهودى الأخرى. ومفهوم التاريخ اليهودى يفترض أن لهذا التاريخ مراحله التاريخية وفتراته المستقلة ومعدل تطوره الخاص، بل أيضا وقوانينه الخاصة، وهو تاريخ يضم اليهود وحدهم، يتفاعلون داخله مع عدة عناصر مقصورة عليهم، من أهمها دينهم وبعض الأشكال الاجتماعية الفريدة. واستقلالية أى بناء تاريخى تعنى استقلالية بناه الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك استقلالية البنى الحضارية والرمزية المرتبطة به، وتجانسها النسبى فى كل مرحلة من مراحله. كما أن هذا البناء يضم جماعة من الناس لا وجود لها خارجه، ولايمكن فهم سلوكها إلا فى إطار تفاعلها معه. ولكن من الثابت تاريخيا أن الجماعات اليهودية المنتشرة فى العالم كانت تتسم بعدم التجانس وعدم الترابط وبأن أعضاءها كانوا يوجدون فى مجتمعات

مختلفة تسودها أنماط إنتاجية وأبنية حضارية اختلفت باختلاف الزمان والمكان. فيهود اليمن، في القرن التاسع عشر، كانوا يعيشون في مجتمع صحراوي قبلي عربي. أما يهود هولندا فكانوا في الفترة ذاتها يعيشون في مجتمع حضري رأسمالي غربي. ولكن هذا نجد أن سلوك اليهودي اليمني ورؤيته للكون تحكمها إلى حد كبير عناصر البناء التاريخي العربي الذي يعيش فيه، تمامًا كما تحكم سلوك يهود هولندا ورؤيتهم مكونات البناء التاريخي الغربي الهولندي.

والآن، إذا افترضنا جدلاً وجود تاريخ يهودي، فما هي أحداث هذا التاريخ؟ هل الثورة الصناعية، على سبيل المثال، ضمن أحداث هذا التاريخ، أم أنها حدث ينتمي إلى التاريخ الغربي؟ في الواقع سنكتشف أن الثورة الصناعية حدث ضخم في التاريخ الغربي، ترك أعمق الأثر في يهود العالم الغربي، وأحدث انقلابا في طرق حياتهم ورؤيتهم للكون في القرن التاسع عشر، أي بعد حدوث الانقلاب بفترة وجيزة، لكن هذا الانقلاب لم يحدث لهم باعتبارهم يهودا وانما بأعتبارهم أقلية توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي، إذ إننا سنجد أن هذا الانقلاب في طرق الحياة والرؤية للعالم قد حدث أيضا لأعضاء الأغلبية ولأعضاء الأقليات الأخرى الموجودة داخل المجتمعات الغربية. وفي الوقت نفسه، لم يتأثر يهود العالم العربي بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها، ذلك لأن التشكيل الحضاري العربي كان بمنأى عن هذه الثورة الصناعية في بداية الأمر، لكن بعد نحو قرن من الزمان، بدأ هذا التشكيل يتأثر بالثورة

الصناعية، وبالتال بدأ أثرها يمتد إلى معظم المجتمعات العربية بأغلبياتها وأقلياتها، أما يهود إثيوبيا فلم يتاثروا إلابشكل سطحى، لأن المناطق التى يعيشون فيها ظلت بمنأى عن هذه التحولات الكبرى، وبقيت ذات طابع قبلى حتى الوقت الحاضر. لذا يمكن القول بأن معدل تأثر اليهود بـالثورة الصناعية مسألة مرتبطة بكونهم أعضاء فـى مجتمـع مـا . فـإذا تـاثر هـذا المجتمع بالثورة الصناعية فإن أعضاء الجماعـات اليهوديـة يتـأثرون بـها بالمقدار ذاته، وإذا فالإطار المرجعــى للدراسـة لا يمكـن أن يكـون التـاريخ اليهودى. ولو جعل الباحث هذا التاريخ مرجعيته لعجز عن تفسـيرِ كثـير من عناصر عدم التجانس والتفاوت فى هذا التاريخ، ولاضطـر إلى ليِّ عنـق الحقائق ليفسر سبب تأثر يهود لندن بالثورة الصناعيـة فـور حدوثـها ولم يتأثر بها بعض يهود إثيوبيا حتى الآن!

هوية يهودية وموروث يهودى

إذا كان من الصعب قبول مقولة «التـاريخ اليـهودى» فإنـه يصبـح مـن الصعـب بالتـالى الحديـث عـن «الهويـة اليهوديـة» أو عـــن «الشـــخصية اليهودية»، إذ إن من الواضح أن أعضاء الجماعات اليهودية هـم جـزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التى يعيشون فى كنفها، يتفاعلون معـها تأثيرًا وتأثرًا، شأنهم فى هذا شأن أعضاء الأغلبيات والأقليات.

لنأخذ على سبيل المثال الموروث الثقافى لأعضاء الجماعات اليهودية، إننـا سـنلاحظ مثـلاً أن اللغـات التـى يتحدثـون بـها تختلـف بـاختلاف

المجتمع الذى ينتمون إليه، فهم يتحدثون الإنجليزية فى البلاد التى تتحدث بها، والفرنسية فى فرنسا، والجورجية فى جورجيا .

وتشير المراجع الصهيونية إلى اللادينو (وهى رطانة إسبانية كان السفارديم يتحدثون بها)، واليديشية (وهى ألمانية العصور الوسطى بعد أن دخل عليها بعض المفردات العبرية والسلافية، وتُكتب بحروف عبرية، كان يهود شرق أوربا يتحدثون بها). نقول إن المراجع الصهيونية تشير إلى هاتين الرطانتين بُحسبانهما تعبيرًا عن الاستقلالية اليهودية. لكن من المعروف أن ظاهرة اللهجة المستقلة ليست مقصورة على اليهود فكثير من أعضاء الأقليات ممن يضطلعون بوظيفة معينة (كالتجارة والربا) يبقون على لغتهم وسيلة للحديث، ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك الأرمن في الدولة العثمانية والصينيون فى جنوب شرق آسيا، الذين يضطلعون بوظائف مالية محددة، فهؤلاء يتحدثون لغتهم الأصلية ويحتفظون بتماسكهم، لكن بزوال وظيفتهم يرحلون عن الوطن أو يندمجون فيه، وهذا ما حدث للادينو واليديشية، فالأولى انقرضت تماما، أما الثانية فقد اصبحت لغة المسنين فى بعض بقايا الجيوب اليهودية فى شرق أوربا، وهى فى طريقها إلى الاختفاء.

ويقوم المؤلفون اليهود بوضع مؤلفاتهم بلغة أوطانهم، وحتى المؤلفات الدينية التى كانت تكتب بالأرامية أوالعبرية، فإنها تكتب الآن بالإنجليزية أوالفرنسية أو الألمانية، أو بأية لغة يجيدها المؤلف من أعضاء الجماعات اليهودية، ولم يعد يكتب بالعبرية سوى المؤلفين الإسرائيليين.

وإذا تركنا اللغة (هذا الوعاء البالغ الأهمية) ونظرنا إلى الأدب والفنون التشكيلية، فسنجد أن التقاليد الأدبية والفنية التي يبدع المؤلفون والفنتانون اليهود من خلالها هي تقاليد بلادهم. ولا يمكن فهم إبداعات هؤلاء الحضارية إلا بالرجوع إلى موروثات بلادهم الحضارية، ولو عاد الباحث إلى مفهوم الهوية اليهودية العامة والعالمية لضل سواء السبيل تماما. وقل الشيء نفسه عن الأزياء والأطعمة والطرز المعمارية.

وحتى لو كان ثمة خاصية ما تفصل اليهود عن محيطهم الحضاري، فإن هذه ا لخاصية (مثل تكلم يهود شرق أوربا باليديشية بعض الوقت) تظل مقصورة على أقلية يهودية بعينها، ومرتبطة بملابسات تاريخية وأوضاع اجتماعية وفترة زمنية محددة. وبالتالي، فهي ليست خاصية يهودية عامة أو عالمية، وإنما هي خاصية تتسم جماعة يهودية ما بها، توجد داخل زمان ومكان محددين، وهي في هذه ا لحالة الجماعة اليهودية في شرق أوربا من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين. وهي أيضا خاصية لا تربط بين هذه الجماعة اليهودية وغيرها من الجماعات، بل بالعكس، إنها تزيدها فُرقة وتنوعا، فاليهود خارج هذا الزمان وهذا المكان لا يتحدثون اليديشية، وبعضهم يرفضها، وقد نشب صراع بين دعاة اليديشية من أنصار قومية الدياسبورا ودعاة العبرية من الصهاينة، كما هاجم مثقفو حركة الاستنارة في ألمانيا اليديشية باعتبارها ألمانية مشوهة ولغة الغش التجاري والتخلف الحضاري! وقد

اختفت اليديشية، بينما استمر يهود شرق أوربا في الوجود، يتحدثون لغات أوطانهم: الروسية، والبولندية، والأوكرانية ، والألمانية.

سفارديم وإشكناز ويهود العالم الإسلامى

يمكن تصنيف الجماعات اليهودية المتنوعة على عدة أسس، كلها ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية جزئية. وهذا يعود إلى إشكالين أساسيين كامنين في الشرع والموروث الديني اليهوديين: فاليهودي يُعرَّف بأنه من وُلد لأم يهودية أو تهوَّد بحسب الشريعة. وهو ما يعني أن هناك أساسًا عقائديًا (التهود والإيمان باليهودية) وأساسًا عرقيًا (الأم يهودية)، أي أن الإنتماء إلى اليهودية يمكن أن يتم على أساس أي من المنطلقين. كما أن اليهودي الملحد يظل يهوديًا على الرغم من إلحاده (وهذا أمر ينفرد الشرع اليهودي به دون الإسلام أو المسيحية).

ويمكن تصنيف أعضاء الجماعات اليهودية، على أساس عرقي أو إثني، إلى مجموعات كبرى ثلاث:

١ - السفارديم :

هم اليهود الذين كانوا يتحدثون اللادينو، وهم نسل أولئك اليهود الذين عاشوا في شبه جزيرة أيبيريا أصلاً، وحينما طُرد أعضاء الجماعة اليهودية منها اتجهوا إلى الدولة العثمانية واليونان وشمال إفريقيا، وكانت قطاعات من يهود المارانو المتخفين (الذين أظهروا الكاثوليكية وأبطنوا اليهودية هربًا من محاكم التفتيش) تلحق بهم وتشهر يهوديتها

فتصبح من السفارديم. وكان بين السفارد نخبة تمتلك مهارات إدارية، كما كانت تمتلك رأس مال كبير يؤهلها للاضطلاع بدور التجارة الدولية. وفعلاً كوّن السفارد شبكة تجارية دولية فقاموا، بالتالى، بدور أساسى فى تطوير الرأسمالية الغربية. ولهم طريقتهم الخاصة فى الصلاة والطقوس الدينية، ولذا يمكن الإشارة إلى النهج السفاردى فى العبادة، كما أن عبريتهم تختلف عن عبرية الأشكناز، وكان السفارد أكثر اندماجًا فى محيطهم الحضارى وأكثر استيعابًا للحضارة العربية ثم الحضارة الغربية. وظهر فى صفوفهم الفيلسوف إسبينوزا ورئيس الوزراء دزرائيلى، وثمة عداء متأصل بين السفارد والأشكناز، فالسفارد كانوا أرستقراطية اليهود، وكان استقرار الأشكناز فى أماكن تجمعهم يسبب لهم الحرج، وكانوا لا يتعبدون معهم ولا يتزوجون منهم، وكانوا يحاولون الاحتفاظ بمسافة بينهم، وقد انقلب الوضع رأسًا على عقب بعد أن تحولوا إلى أقلية وحقق الأشكناز بروزًا فى الحضارة الغربية، وبعد إعلان دولة إسرائيل.

٢ - يهود الشرق والعالم الإسلامى :

يُشار إلى يهود الشرق والعالم الإسلامى بأنهم «سفارد» أيضًا، وهذه تسمية مغلوطة، ويعود هذا إلى أن كثيرًا من يهود العالم الإسلامى يتبع النهج السفاردى فى العبادة، لكن هذا لا يجعلهم من السفارد، فتجربتهم الدينية والثقافية والتاريخية مختلفة تمامًا. وينقسم يهود العالم الإسلامى إلى عدة أقسام، أهمها يهود البلاد العربية أو اليهود المستعربة الذين استوعبوا التراث العربى وأصبحوا جزءًا لا يتجزأ منه،

غير أن هناك جماعات صغيرة أخرى ، مثل اليهود الأكراد وبقايا السامريين ويهود جبال الأطلس من البربر ويهود إيران ، وغيرهم. ويتميز كل فريق بأنه مستوعب فى إطاره الحضارى للمجتمع الذى يعيش فى كنفه فيتحدث لغة، بل أيضا لهجة المجتمع الذى يعيش فيه، ويتعامل مع العالم من خلال أنساق هذا المجتمع الثقافية والرمزية. وهناك أحيانًا سمات دينية فريدة لأعضاء هذه الجماعات الصغيرة، تعزلها عن التيار الرئيسى لليهودية، إذ إن المكون الإثنى كثيرًا ما يؤثر فى المكون الدينى ويغلب عليه.

٣ - الأشكناز :

هم أساسًا يهود شرق أوربا (روسيا/ بولندا) الذين يتحدثون اليديشية. ويعود اصلهم إلى ألمانيا (أشكناز بالعبرية) ومع أن أغلبية الأشكناز كانت تتحدث اليديشية، فقد كان الأشكناز يتحدثون اللغات الأوربية الأخرى، وحينما كان المهاجرون الأشكناز يغادرون بولندا إلى بلاد مثل هولندا وإنجلترا ثم الولايات المتحدة، كانت المجتمعات المضيفة (بما فى ذلك أعضاء الجماعة اليهودية فيها) تعتبرهم متخلفين، فقد كانوا يعملون كصغار مرابين وباعة متجولين، وكانوا يحضرون معهم بعض الأمراض الاجتماعية، كالغش التجارى والدعارة. وكانوا يظهرون عزوفًا عن الإندماج، ولاسيما أن أزياءهم وطريقة قص شعرهم مختلفة، فكانت تميزهم وتعزلهم عن محيطهم الحضارى الجديد. وصيغ الدين اليهودى التى يعرفونها تختلف عن الصيغ التى يعرفها السفارد.

ولذا، يمكن الحديث أيضًا عن النهج الأشكنازى فى العبادة، والمسألة اليهودية كانت أساسا مسألة يهود شرق أوربا من الاشكناز، وقد ظهرت جميع الحركات الفكرية اليهودية الحديثة فى صفوفهم أيضًا: حركة الاستنارة اليهودية، اليهودية الإصلاحية، اليهودية المحافظة، قومية الدياسبورا، البوند، وأخيرًا الصهيونية التى بدأت كحركة أشكنازية تهدف إلى تأسيس دولة أشكنازية، لكن يهود الشرق والعالم الإسلامى وبقايا السفارد اكتسحوها.

إصلاحيون ومحافظون وأرثوذكس وطوائف وعبادات أخرى

يمكن تقسم يهود العالم من الناحية الدينية إلى قسمين أساسيين:

١ - يهود إثنيون وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والموروث الدينى، وهم يرون أن يهوديتهم تكمن فى إثنيتهم، أى فى أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافى، ويمكن القول بأن أكثر من نصف يهود أمريكا يهود بهذا المعنى، أما فى الاتحاد السوفيتى (سابقا)، فإن عددهم يزيد عن ذلك كثيرًا، ويشار إلى هذا الفريق بأنه اليهود الملحدون أوالعلمانيون.

٢ - يهود يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، وهؤلاء ينقسمون إلى عدة أقسام:

(أ) اليهودية الأرثوذكسية : هى وارثة اليهودية الحاخامية أوالمعيارية أوالتلمودية. وهى الصيغة اليهودية التى سادت بين الجماعات

اليهودية الأساسية فى الغرب منذ العصور الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويؤمن اليهود الأرثوذكس بأن التوراة مرسلة من الإله، وبأن كل ماجاء فيها مُلزم. ولذا، فهم يرون ضرورة أن يلتزم اليهودى بتنفيذ الوصايا والنواهى (المتسفوت)، وضرورة إقامة الشعائر كافة، بما فى ذلك شعيرة السبت والطعام الشرعي.

(ب) اليهودية الإصلاحية : هى أول المذاهب اليهودية التى تحدت اليهودية الحاخامية وظهرت فى ألمانيا (مهد الإصلاح الدينى المسيحى)، وتُعدُّ ترجمة لفكر عصر الاستنارة. وهى تحاول أن تعبر عن العصر الحديث، فتُحكِّم العقل فى كل شيء، وتحاول أن تفصل المكون الدينى عن المكون العرقى أو القومى فى العقيدة اليهودية بحيث يصبح المكون وحده مُلزمًا، ويسقط أى تفسير قومى لأفكار مثل «العودة» و«النفى». بحيث تصبح كلها أفكارًا تعبِّر عن تطلع دينى يتحقق فى آخر الأيام، أو بالتدريج عبر التاريخ. وهذا كله يهدف إلى تعميق ولاء اليهودى للوطن الذى يعيش فيه ودمجه فى محيطه الحضارى بحيث يتحول إلى مواطن فى الشارع ويهودى فى منزله. (ومع هذا تم صهينة اليهودية الإصلاحية، شأنها شأن معظم التيارات والطوائف اليهودية الأخرى).

(جـ) اليهودية المحافظة : هى مجموعة من التيارات الفكرية تصدر عن الإيمان بأن العقيدة اليهودية تعبير عن روح الشعب اليهودى الثابتة (لا روح العصر المتغيرة)، وبأن هذه العقيدة تطورت عبر التاريخ وأخذت أشكالاً مختلفة، وبأنها من ثم قادرة على التكيف مع اللحظة التاريخية.

فاليهودية ليست مجموعة عقائد ثابتة وإنما هي تـراث أخـذ فـي التطـور التاريخي الدائم. لكن أي تغيير يدخل على هذه العقائد لابد من أن يكون نابعًا من صميمها معبرًا عن روح الشعب اليهودي وهويتـه. ويمكـن القـول بأن اليهودية المحافظة ترى الدين اليهودي باعتبـاره، فـي واقـع الأمـر، الفلكلور اليهودي، أو الروح القومية اليهودية. وهي في هذا قريبـة للغايـة من الرؤية الصهيونية لليهودية، على الرغم من أن ما يهيمن على المؤسسة الدينية في إسرائيل هي اليهودية الأرثوذكسية.

ولا تؤمن اليهودية الإصلاحية أو المحافظة بأن الكتاب المقدس مُرسـل من الإله، وإنما هي مجموعة من الأقوال الحكيمة والأساطير الشعبية التي ألهم الخالق بعض الأنبياء بها لكنه لم يوح إليهم بها، ومن ثم، فمن حق المخلوق أن يتصرف بحسب ما يمليه العقل أو العصر عليه، فيُغيِّر ويُبـدل في الشعائر، بل يُسقطها تمامًا في بعض الأحيان. ولذا فـإن الإصلاحيـين والمحـافظين لايلـتزمون الوصايـا (الأوامـر والنواهـي)، ولا يقيمـون شـعائر السبت أوالطعام الشـرعي إلا علـى نحـو جزئـي مـن قبيـل الحفـاظ علـى الفلكلـور. وقـد أبـاحت اليهوديـة الإصلاحيـة والمحـافظـة ترسـيم النسـاء حاخامات، كما أباحت الشذوذ الجنسي بين الذكور والإناث، بل ويُرسَّم الآن الشواذ والسحاقيات حاخاميين. والأغلبية الساحقة مـن يـهود العـالم الغربي إثنية أو محافظة وإصلاحية، ولا يشـكل الأرثوذكـس سـوى أقليـة لاتزيد عن ٥٪. ويلاحظ إقبال أعضاء الجماعات اليهودية على العبـادات

الجديدة، مثل البهائية والماسونية وما يسمَّى ديانات العالم الجديد (الإيمان بأن للهرم شكلاً ذا قوة سحرية خارقة، على سبيل المثال).

امريكيون وفلاشاه

إلى جانب هذه التقسيمات الأساسية توجد جماعات هامشية لا حصر لها، وقد أشرنا إلى السامريين الذين لايؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساسًا بنسختها المختلفة عن تلك المتداولة بين اليهود كافة ومركزهم هو جبل جرزيم فى نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجئ الماشيَّح. وهناك أيضًا القراؤن الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلى الإسلامى)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف فى كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل، وهناك بقايا يهود كايفنج فى الصين، يعبدون يهوه الذى يسمونه تيين (السماء) ويتعبدون فى معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف، وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تماما، ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها يهودية كونفوشيوسية (تمامًا مثلما نجد أن يهودية بنى إسرائيل فى الهند يهودية هندوكية) . وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

لكن بدلاً من الدخول فى تفصيلات لا حصر لها، يمكن أن تقارن بين عيِّنتين إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر

تجمع يهودى فى العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشا الذيـن يشـكلون تجمعا صغيرا هامشيا منعزلاً.

ينتمى يهود الولايات المتحدة فى الدرجة الأولى، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل أشكنازى (ألمانى أو روسى / بولند). وتوجـد قلة من السفارد، والقرائين، والكرمشاكى (وهم ينتمون إلى جماعة يهوديـة صغيرة فى شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالتترية، ويبدو أنهم مـن بقايا يهود الخزر). وهناك أيضا بعـض الأمريكيـين السـود الذيـن يُدعَـون «العبرانيين السود» وهؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن أفريقيـا عـن طريـق شق قناة السويس، ويدَّعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثـم يـرون أنـهم هـم وحدهـم أصحاب الحق فى استرداد إسرائيل والإسـتيطان فيـها وحكمـها. وتوجـد جماعة منهم فى شيكاغو هاجر أعداد منها إلى اسـرائيل، حيـث اسـتقروا فـى جـوار ديمونـا وفـى أمــاكن أخــرى، وهــؤلاء لا تعــترف إســرائيل أو المؤسسات الحاخامية بهم، بطبيعة الحـال، ولـذا فـهم يشـكلون أقليـة منبوذة داخل كل من الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية فـى الولايـات المتحدة.

أما الفلاشا، فهم من يهود إثيوبيا، وملامحهم لا تختلـف مـن قريـب أو بعيد عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا. وإذا كان هناك بينهم مـن التنويعات، فهى تنويعات تشبه فى بعض الوجوه التنويعات الموجودة فى مجتمعهم. وهناك جماعـة الفلاشـا مـوراه، وهـى جماعـة مسـيحية شـبه

يهودية منبوذة من الفلاشا كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنـين مـن الزمان.

ومـن الناحيـة الدينيـة، ينقسـم يـهود الولايـات المتحـدة إلى قسـمين أساسيين: يهود إثنيون لا أدريون ويهود متدينون وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى إصلاحيين ومحـافظين وتجديديـين وأرثوذكـس (ويوجـد بعـض الفـرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيـون فـى الولايات المتحدة يتعبدون فـى المعبـد اليـهودى (السـيناجوج)، ويرأسـهم حاخام، ولايقيمون معظم الشعائر ولايكترثون بالطعـام الشـرعى أوبشـعائر السبت والطهارة والنجاسة.

أما الفلاشا، فهم أساسًا خارج نطاق اليهودية الحاخامية، ولايعرفـون التلمود، وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخامية، فشعائر الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع هذا فهم يقيمـون شـعائرهم كلها (وقد صُدمـوا حينمـا هـاجروا إلى إسـرائيل بسـبب انصـراف أعضـاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهوديـة)، ويـرأس يـهود الفلاشـا قساوسـة (يقال لهم قسيم)، وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبـان وراهبـات، ويصلون فى معبد يهودى يسمَّى المسجد، ويخلعون نعالهم قبل دخوله!

ومن ناحية اللغة فإن يهود الولايـات المتحـدة يتحدثـون الإنجليزيـة، ويعرف بعض علمائهم العبرية والأرامية، كمـا توجـد العبريـة فـى بعض كتب الصلوات، أما يهود الفلاشا، فـهم يتحدثـون الأمهريـة (ويتحـدث

بعضـهم بالتيجرينيـة). ويتعبـدون بالجعيزيـة، لغــة الكنيســة القبطيــة الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد.

ولكل جماعة يهودية خطابـها الحضـارى وفلكلورهـا الـذى ينبـع مـن محيطها الحضارى، ففى حالة يهود أمريكا، ينبع خطابهم الحضارى من محيطهم الحضارى الحالى (الأمريكى)، أو من محيطهم الحضارى السـابق (روسيا - بولندا - ألمانيا - إنجلترا)، أما فى حالـة يـهود الفلاشـا، فـهو ينبـع كلـه مـن محيطـهم الحضـارى الإثيوبـى الإفريقـى. وفـى حــين أن اليـهودى الأمريكـى يرتـدى البنطلـون «الجيـنز» ويــأكل «الهــامبورجر» ويرقص الديسكو ويعيـش فـى مـنزل عصـرى. وقـد يُطعِّـم حديثـه ببعـض الكلمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم اليديشيه كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التى كانوا يرتدونها فى شرق أوربا، فإن يـهودى الفلاشـا يرتدى شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبيا، وهو يـأكل طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة فى منطقته، ويعيش فى كـوخ مغطـى بالحطب لايختلف من قريـب أو بعيـد عـن الأكـواخ المجـاورة، والوضـع الاجتماعى ليهود أمريكـا (نسـبة الطـلاق - الوظـائف - المـهن) ورؤيتـهم للكـون لاتختلـف عـن وضـع الإنسـان الأمريكـى ورؤيتـه للكـون. اللذيــن يختلفان بشكل جوهرى عن وضع الفلاشا ورؤيتــهم. ولهـذا كلـه، فبينمـا كانت الدولة الصهيونية تتلهف لهجـرة يـهود الولايـات المتحـدة إليـها، فإنها كانت ترفض هجرة الفلاشا حتى سـنة ١٩٧٣. ولئـن كـانت الدولـة الصهيونية تشجع هجرتهم الآن، فليس ذلك بسبب أى تغيـير طـرأ علـى

هويتهم وإنما بسبب تغييرات طرأت على سياسة الدولة الصهيونيـة، بـل أيضا على هويتها، ومـدى حاجتـها إلى العنصـر البشـرى. بـل إن الدولـة الصهيونية بدأت ترحب بالفلاشا موراه، مع أن هؤلاء لا يمكـن اعتبـارهم يهودًا مهما يتم من تطويع للكمات قسرًا.

جماعات يهودية

يمكـن القـول : إن الاختلافـات بـين يـهود الولايـات المتحـدة ويـهود الفلاشا هي حقًا اختلافات جذرية في جميع المجالات. لكن قد يقال إن مثل هذه الاختلافات العميقة موجودة عادةً بين المركز والأطراف فـى أى تشكيل حضارى أو نسق دينى، فالجماعات المسيحية المتطرفـة (المورمـون مثلا) مختلفة جوهريًا عن الأشكال المركزية المسيحية، والقول نفسه ينطبق على الإسلام، وفى هذا بعض الصدق. بيد أن وضع اليهود واليهودية يظل فريدًا إلى حدكبير، فالمركز فى اليهوديـة اختفـى منـذ أمـد طويـل، الأمـر الذى سمح بتطور الأطراف على نحو مستقل تمامًا عن المركز، أى مركـز، وأصبح للأطراف شرعية لا تقل شرعية عما يسمًى التيـار الأساسـى فـى اليهودية. وحتى قبل أن يختفى المركـز، كـان النسـق الدينـى اليـهودى يحوى تناقضات عميقة كثيرة، وعدد كبير من المفاهيم الدينية لم يسـتقر، فالسنهدرين (أعلى سلطة دينية يهوديـة فـى القـرن الأول الميـلادى وهـى التى قامت بمحاكمة السـيد المسـيح) كـان يضـم الصدوقيـين الذيـن كـانوا يؤمنون بيهودية وثنيـة هرميـة صارمـة لا بعـث فيـها ولا إيمـان، وإنمـا عقيدة جافـة جـامدة تـدور حـول القرابـين والشـعائر المنضبطـة والمرتبطـة بالأرض تماما. لكن السنهدرين كان فى الوقت ذاته يضم الفريسيين الذين

كانوا يؤمنون بالبعث وبضرورة الإيمان باليوم الآخر (وكانوا يقومون بالتبشير باليهودية، وهو الأمر الذى لاتعرفه اليهودية) . وعلى الرغم من الاختلافات العميقة، كان الصدوقيون والفريسيون يجلسون جنبًا إلى جنب في السنهدرين، ويمارسون نشاطهم الديني، ولايمكن تفسير هذا الوضع إلا بعدم تبلور النسق الديني اليهودى قبل تحطيم الهيكل وسقوط المركز، يضاف إلى هذا ما يمكن تسميته التعريف الثنائي لليهودى على أساس عقدى وعلى أساس عرقى الذى اسلفنا الإشارة إليه. ذلك كله سمح بظهور ما يمكن تسميته الخاصية الجيولوجية لكل من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية (أو العقائد والهويات اليهودية إن أردنا توخى الدقة) وهى أن هذه العقائد والهويات تأخذ شكل تركيب جيولوجي مكون من طبقات مختلفة، مستقلة ومتراكمة أو متجاورة، لكنها غير ملتحمة أو متفاعلة، كما أنها لاتخضع لأية معيارية مركزية. ومع هذا، فإن هذه العقائد كافة سُمِّيت « يهودية » وسُمى كل هؤلاء « يهودًا »، وهو أمر كان مقبولاً أو يمكن تجاهله من قبل. لكن مع ظهور الدولة الصهيونية وبداية المواجهة بين هذه العقائد وتلك الهويات، تفجَّر السؤال الذى لا يزال يبحث عن إجابة. من هو اليهودى ؟

لهذا كله ، نجد أن مصطلح « يهودى » مصطلح عام ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه، ولذا فإننا نفضِّل استخدام مصطلح « جماعات يهودية»، ونحرص على استخدامه قدر استطاعتنا (إلا إذا تطلب السياق غير ذلك)، فهو مصطلح يُصنِّف هذه الجماعات اليهودية بحُسبانها « يهودية » ، لكنه يؤكد في الوقت نفسه عدم تجانسها باستخدام كلمة « جماعات » .

الفصل الثانى

الخصوصية اليهودية

كلمة «ثقافة» لها معنيان أو استخدامان رئيسيان:

١ - معني متسع ويعني أسلوب الحياة في المجتمع بكل ما ينطوى عليه من موروث مادى ومعنوى حي.

٢ - معنى ضيق ويعنى الأنشطة الإبداعية المتميزة فى الآداب والفنون الأدائية والتشكيلية. ونحن نستخدم الكلمة بكلا المعنيين.

وتشير معظم الكتابات التى تتناول أعضاء الجماعات اليهودية إلى «الثقافة اليهودية» و «التراث اليهودى» و «الموروث اليهودى». وهذه المصطلحات، شأنها شأن مصطلحات الاستقلال اليهودى الأخرى مثل «التاريخ اليهودى» و «القومية اليهودية» و «الخصوصية اليهودية» تفترض أن الجماعات اليهودية فى العالم لها حضارة مستقلة وثقافة مستقلة وتراث مستقل عن المجتمعات التى يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، وأن الإسهامات الحضارية المختلفة لليهود سواء فى بابل أو فلسطين فى العصور القديمة أم فى فرنسا فى العصور الوسطى فى الغرب أم فى بولندا والهند والصين فى القرن السادس عشر أم فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر أم فى الولايات المتحدة واليمن فى القرن العشرين،

وبرغم تنوعها الحتمى والمتوقع. تعبر عن نمط واحد (وربما جوهر يهودى) يجعل من الممكن أن نرى كل هذه الإسهامات باعتبارها تعبيرًا عن حضارة يهودية أو ثقافة يهودية واحدة، ويستند مفهوم الإثنية اليهودية (وهو مفهوم صهيونى أساسى) إلى افتراض وجود مثل هذه الثقافة المستقلة.

الثقافة بدلاً من العرق

ويلاحظ أنه بعد ظهور هتلر، وبعد قيامه بذبح الملايين من أعضاء الجماعات اليهودية والبولنديين والروس والغجر والمعوقين وغيرهم من البشر باسم التفوق العرقى الآرى أسقط الصهاينة المفهوم العرقى للهوية اليهودية، وأخذوا يؤكدون بدلاً من ذلك المكون الثقافى الإثنى كأساس للهوية. ولم يكن هتلر وحده هو الذى دفع الصهاينة للتخلى عن الاعتذاريات العرقية التى سادت فى الخطاب الحضارى الغربى منذ منتصف القرن التاسع عشر. فعلى الرغم من محاولاتهم الأولى فى إثبات أن اليهود شعب واحد (آين فولك) بالمعنى العرقى، إلا أنهم وجدوا أن إثبات وحدة اليهود العرقية أمر فى غاية الصعوبة. إذ يوجد يهود بيض ويهود سود ويهود صُفر، ويهود من كل لون. ولذا لم يكن هناك مناص من التخلى عن الاعتذاريات العرقية الفجة على أن تحل محلها الاعتذاريات الإثنية المصقولة. وقد تعمق مفهوم الهوية الإثنية المستقلة حتى تغلغل تمامًا فى النسق الدينى اليهودى ذاته. فاليهودية المحافظة، على سبيل المثال، تدور حول مفهوم التاريخ اليهودى والثقافة اليهودية. وقد أسس المفكر الدينى الأمريكى اليهودى مردخاى كابلان فرقة يهودية تسمَّى

«اليهودية التجديدية» تستند إلى الإيمان بالحضارة اليهودية والثقافة اليهودية والتراث اليهودى، وإلى أن هذا التراث شىء مقدس يشغل نفس المكانة التى شغلها الخالق فى التفكير الدينى اليهودى التقليدى. وغنى عن القول أن المشروع الصهيونى بأسره يستند إلى رفض الأساس الدينى الغيبى للهوية اليهودية ويحل محلها فكرة الثقافة اليهودية المستقلة.

و «الخصوصية اليهودية» تعبير يفترض وجود سمات وخصائص (ثقافية أو عرقية) ثابتة، مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية، وهى التى تمنحهم خصوصيتهم وتفردهم وهى التى تحدد سلوكهم أينما كانوا وهى التى تشكل إطارًا حقيقيًا لوجدانهم ولرؤيتهم للكون. أما سماتهم وخصائصهم الأخرى (غير اليهودية) فهى سمات وخصائص سطحية لا ترتبط بصميم وجودهم أو وجدانهم. وفكرة الخصوصية اليهودية والتفرد اليهودى فكرة محورية فى كافة الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود، إذ إن أعضاء الفريقين يرون أن ثمة طبيعة بشرية أو هوية ثقافية يهودية مستقلة، ويذهب أعضاء الفريق الأول إلى أنها مصدر إبداع اليهود وإنتاجيتهم وحركيتهم بينما يرى أعضاء الفريق الثانى أنها مصدر عدمية اليهود وتخريبيتهم بل وإجرامهم. ورغم اختلاف النتائج التى يصل إليها أعضاء الفريقين إلا أن المقدمات الفلسفية والافتراضات الفكرية واحدة.

ومفهوم الخصوصية اليهودية مرتبط تمام الارتباط بمفهوم الثقافة اليهودية المستقلة. وسنركز على مفهوم الثقافة اليهودية المستقلة كمدخل لدراسة الخصوصية اليهودية.

استقلال الثقافة اليهودية

ونحن نذهب إلى أنه يمكن القول بأن ثمة تشكيلين حضاريين «يهوديين» يتمتعان بقدر محدود من الاستقلال عما حولهما من تشكيلات حضارية.

١ – الثقافة العبرية القديمة، التي تمتعت بقدر من الاستقلال داخل التشكيل الحضارى السامى فى الشرق الأوسط القديم. ومع هذا ظل هذا الاستقلال محدودًا للغاية بسبب بساطة الحضارة العبرانية ولضعف الدولة العبرانية ولتبعية الدولتين العبرانيتين (مملكة يهودا ومملكة يسرائيل) للإمبراطوريات الكبرى فى الشرق الأوسط القديم (المصرية – الآشورية – البابلية – الفارسية). والتبعية السياسية، خاصةً فى العصور القديمة، كانت تؤدى إلى تبعية ثقافية بل وأحيانًا دينية، ولذا استعارت الثقافة العبرانية الكثير من حضارات هذه الإمبراطوريات.

٢ – الثقافة الإسرائيلية (أو العبرية الحديثة). هذه الثقافة مستقلة ولا شك عن التشكيل الحضارى الغربى. ولكنها مع هذا لا تزال ثقافة جديدة لم تكتمل مفرداتها الحضارية بعد، كما أن الصراع الثقافى الحاد بين عشرات الجماعات اليهودية التى انتقلت إلى إسرائيل ومعها تقاليدها الحضارية (سفارد – أشكناز – يهود البلاد العربية – فلاشاه – بنى إسرائيل من الهند – يهود بخارى – يهود قراءون – سامريون.. إلخ) يجعل من العسير بلورة مثل هذه الثقافة.

ولكن العنصر الأساسي الذى يتهدد عملية بلورة خطاب حضارى إسرائيلى مستقل هو أن المجتمع الإسرائيلى مجتمع استيطانى يدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة الأمريكية ويعانى من تبعية اقتصادية وعسكرية مذلة لها، فهو يدين لها ببقائه وبمستواه المعيشى المتفوق، ولذا فثمة اتجاه حاد نحو الأمركة يكتسح فى طريقه كل الأشكال الإثنية الخاصة التى أحضرها المستوطنون معهم من أوطانهم الأصلية. ومما يعمق من هذا الاتجاه أن المجتمع الإسرائيلى مجتمع علمانى تمامًا، ملتزم بقيم المنفعة واللذة والإشباع المباشر والنسبية الأخلاقية والاستهلاكية وهذا يتعارض مع محاولة التراكم الحضارى. ومع ظهور النظام العالمى الجديد والاستهلاكية العالمية، فإنه من المتوقع أن تزداد الأمور سوءًا.

وبخلاف الحضارة العبرانية القديمة والثقافة الإسرائيلية الجديدة لا يمكن الحديث عن ثقافة أو حضارة يهودية مستقلة أو شبه مستقلة. فاليهود، مثلهم مثل كافة أعضاء الجماعات والأقليات الدينية والعرقية الأخرى، يتفاعلون مع ثقافة الأغلبية التى يعيشون فى كنفها ويستوعبون قيمها وثقافتها ولغتها. وإن كان هناك درجة من الاستقلال لكل جماعة يهودية عن الأغلبية، فإن هذا الاستقلال لا يختلف عن استقلال الأقليات الأخرى عن الأغلبية، كما أنه لا يعنى بالضرورة أن ثمة عنصرًا عالميًا مشتركًا بين كل جماعة يهودية وأخرى، فالعبرانيون، منذ ظهورهم فى التاريخ تبنوا حضارات الأمم الأخرى، ابتداءً من اللغة، مرورًا بالمفاهيم الدينية، وانتهاءً بالطراز المعمارى. وعلى سبيل المثال، لا يعرف طراز

يهودى معمارى، أو فن يهودى مستقل، فقد كان هيكل سليمان يتبع الطراز الآشورى الفرعونى (المصرى)، ولم يكن يختلف كثيرًا عن الهياكل الكنعانية. وكذلك تتبع المعابد اليهودية فى العالم العربى الطراز العربى أما جنوب الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر، فكانت المعابد اليهودية فيه تُبنى على الطراز النيوكلاسيكى السائد هناك آنذاك. والفنانون التشكيليون اليهود فى العصر الحديث، أمثال مارك شاجال، ينتمون إلى تراث فنى غربى ولا يمكن رؤيتهم فى إطار ثقافة يهودية مستقلة ولا يعرف أيضًا تراث أدبى يهودى مستقل، فالأدباء اليهود العرب فى الجاهلية والإسلام اتبعوا التقاليد السائدة فى عصورهم. وكذلك الأدباء اليهود فى الولايات المتحدة وانجلترا، فإبداعهم مرتبط بالتراث الذى ينتمون إليه، وهذا أمر طبيعى.

لا توجد إذن ثقافة يهودية مستقلة، عالمية، تحدد وجدان اليهود وسلوكهم وإنما توجد ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيل الحضارى الذى يوجد اليهود داخله. ولذا يجدر بنا أن نتحدث عن ثقافة غربية يهودية أو ثقافة عربية يهودية، وبذا نخفض من مستوانا التعميمى حتى يتلاءم مع الظاهرة موضع الدراسة. ولكننا لو فعلنا ذلك فإننا سنكتشف، على سبيل المثال، أن الثقافة العربية اليهودية هى، فى نهاية الأمر، جزء من الثقافة العربية، ولا توجد ملامح يهودية خاصة إلا فى بعض الموضوعات وبعض المضامين المختلفة إذ تظل البنية العامة بنية عربية. ولنضرب مثلاً بيعقوب صنوع وشهرته «أبو نظارة» أحد رواد

المسرح والصحافة الساخرة، وأحد رواد الحركة القومية في مصر. كتب عدة مسرحيات بالعامية المصرية إلى أن منعته الحكومة في عام ١٨٧٢، وجه هجومه ضد الإنجليز الذى كانوا قد احتلوا مصر. ويثير أبو نظارة قضية الهوية اليهودية والثقافة اليهودية، إذ تصنفه المراجع الصهيونية باعتباره مثقفاً يهودياً وهو تصنيف لا يفسر أيًا من الجوانب الهامة من حياته، أدبية كانت أم سياسية، وهى حياة لا تفهم فى كليتها إلا بالعودة إلى حركيات المجتمع المصرى وتقاليد الفكاهة المصرية وحركة التحرر الوطنى فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولتحاول على سبيل التجربة أن تفسر سيرة حياته الشخصية والفكرية فى إطار الجيتو اليهودى فى شرق أوربا أو قصة النجاح اليهودية فى الولايات المتحدة أو عنصرية يهود جنوب إفريقيا، لو فعلت ذلك لاكتشفت مدى عجز مثل هذا النموذج التفسيرى الذى يفترض وجود ثقافة يهودية واحدة عالمية.

وقل نفس الشىء عن الفنان المصرى داود حسنى، فهو ملحن وموسيقى مصرى يهودى ويقرن اسمه بموسيقيين من أمثال سيد درويش وكامل الخلعى حيث لعب دورًا بارزًا فى نهضة الموسيقى فى مصر وفى إثرائها فى العقود الأولى من القرن العشرين. وقد تميز داود حسنى بشكل خاص فى المسرح الغنائى المصرى حيث لحّن كثيرًا من المسرحيات الغنائية، وكان أول من قام بتلحين أول أوبرا مصرية هى «شمشون ودليلة»، كما لحّن أوبرا أخرى هى «ليلة كليوباترا» التى ألفها حسين فوزى. وقد

تتلمذ على يديه كثير من المطربين والمطربات الذيـن حققوا شـهرة واسـعة فيما بعد مثل أم كلثوم وأسمهان.

وتقوم الإذاعة الإسرائيلية بالإشارة إلى داود حسنى باعتبـاره موسيقارًا يهوديًا، وهو أمر يستحق التأمل دون شك، إذ إننا لو حاولنا البحث عـن أى مكون يهودى فـى موسـيقاه لأعيتنـا الحيلـة. ولـذا يدهـش كثـير مـن المصريين الذين يعرفون أغانيه وأدواره، كما يدهش كثير مـن المتخصصـين الذين درسوا موسيقاه، حينما يعرفون أنه «يهودى». ومن ناحية أخـرى، فإنه برغم تميزه داخل الحضارة العربية الحديثـة، وبرغـم ذيـوع صيتـه، فإن كثيرًا مــن الموسوعات والدراسـات التـى تتنـاول مـا يسـمَّى «الثقافـة اليهودية» لا تذكر اسمه (فالثقافة اليهودية عادةً ما تعنى عندهـم الثقافـة اليديشية أو ثقافة يهود العالم الغربى).

وإذا أردنا بلورة وجهة نظرنـا بشـكل أكـثر حـدة (وربمـا طرافـة) وإذا أردنا أن نبين المقـدرة التفسـيرية لنموذجنـا المقـترح (فـى مقـابل النمـوذج الصهيونى القـائل بالثقافـة اليهوديـة ووحدتـها) فلننظـر إلى ظـاهرة مثـل الرقص الشرقى الذى يقال له البلدى (أى هز البطن). كـان يوجـد العديـد من الراقصات المصريات اليـهوديات فـى (كاباريـهات القـاهرة) فـى فـترة الأربعينيات. ويوجد عدد لا بـأس بـه منـهن الآن فـى الولايـات المتحـدة (خاصةً كاليفورنيا). ويوجـد عـدد مـن الراقصـات «البلـدى» فـى الدولـة الصهيونية، بل وتوجد مدرسة متخصصة لتدريس هذا الفن فــى إسـرائيل (وقد أثار المتدينون اليـهود قضيـة بدلـة الرقـص الفاضحـة، إبـان إحـدى

جلسات الكنيست). هل أصبح الرقص الشرقى بذلك «فنًا يهوديًا» وجزءًا من «التراث اليهودى» أم أنه ظل فنًا شرقيًا، ولا يمكن فهمه أو حتى فهم اشتغال بعض اليهوديات به، إلا فى إطار آليات وحركيات الحضارة العربية؟

وستتضح المقدرة التفسيرية لنموذجنا التفسيرى المقترح (عدم وجود ثقافة يهودية واحدة) حينما نطبقه على الجماعات اليهودية فى الحضارة الغربية، إذ سنلاحظ أنه لاتوجد ثقافة يهودية غربية واحدة،وإنما ثقافات يهودية بعدد الدول التى يتواجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، فثقافة يهود إسبانيا (السفارد) هى ثقافة إسبانية، تمامًا مثلما أن ثقافة يهود ألمانيا ثقافة ألمانية، وثقافة يهود إيطاليا ثقافة إيطالية وثقافة يهود أمريكا ثقافة أمريكية.. وهكذا. ويقول المؤلف الإنجليزى اليهودى آرثر كوستلر إن ما يُعرف بالتراث اليهودى، أو الثقافة اليهودية (بمعنى عام لا بمعنى دينى وحسب) أمر ليس من السهل تعريفه إذ إن كل ما يصدر عن أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم ليس يهوديًا بالمعنى المحدد وليس جزءًا من تراث يهودى قائم. فالإنجازات الفلسفية والعلمية والفنية لليهود تتوقف على معطيات ثقافة الشعوب الأخرى وحضاراتها.

المثقف اليهودى: من هو؟

والنموذج التفسيرى الصهيونى بافتراضه وجود ثقافة يهودية واحدة مستقلة يخلق مشكلات لا حصر لها بخصوص عملية تعريف المثقف اليهودى. فلا يوجد نمط واحد لتناول المثقفين أو الأدباء اليهود

للموضوعات اليهودية، فهناك من يتناول الموضوعات اليهودية من منظور يهودى ما مثل الروائى الصهيونى الأمريكى مائير لفين، ولكن هناك أيضًا من يتناولها من منظور معادٍ لليهود مثل الروائى الأمريكى (ناثانيال وست)، وثمة فريق ثالث يتجاهل الموضوع اليهودى تمامًا فى كل كتاباته أو فى معظمها مثل الناقد الأمريكى اليهودى ليونيل ترلنج. وهناك فريق رابع يتناول الموضوع اليهودى ولكنه يضعه فى سياق إنسانى عام ويرى أن غربة اليهودى الحادة إن هى إلا تعبير عن أزمة الإنسان (العلمانى) الحديث، كما يفعل المخرج السينمائى الأمريكى وودى ألين والروائى الروسى أيزاك بابل. وهذا التنوع يجعل من العسير إطلاق اصطلاح «مثقف يهودى» على كل هؤلاء. وفى عام ١٩٨٩، صدر كتاب بعنوان The Blackwell Companion to Jewish Culture (أى دليل بلاكويل للثقافة اليهودية). لكن هذا المعجم لا يضم سوى أسماء المثقفين اليهود داخل التشكيل الحضارى الغربى، واستبعد كافة المثقفين اليهود من الشرق مثل يعقوب صنوع وداود حسنى وغيرهما، ولعل محررى هذا المعجم قد فعلوا ذلك ليفرضوا نوعًا من الوحدة عليه. ولكن الوحدة فى هذه الحالة هى وحدة غربية وليست يهودية.

ولكن المشكلة الأخرى هى أن هذا المعجم يضم أسماء مثقفين يهود معادين بشكل أساسى لليهودية ولا يمكن فهم فكرهم إلا فى إطار تقاليد معاداة اليهود فى الحضارة الغربية، فهل يُصنَّف هؤلاء على أنهم مثقفون يهود يعبرون عن الثقافة اليهودية، بينما يُستبعد المثقفون اليهود الشرقيون؟

وهناك مشكلة ثالثة وهي مجموعة المثقفين اليهود الذين يؤكدون انتمائهم للحضارة المسيحية باعتبارها مصدرًا لوحيهم ولرؤيتهم للكون، مثل بوريس باسترناك، وإيليا هرنبرج (في مرحلة من مراحل حياته). بل هناك فيلسوف يسمَّى ليف شستوف ظهر اسمه في كتاب عن أهم ثلاثة فلاسفة يهود في العصر الحدى ومعه مارتن بوبر وروزنزفايج. ولكن المعجم الذى نتحدث عنه لم يورد اسمه لسبب وجيه هو أن هذا الفيلسوف الذى وُلِد لأم يهودية يعتبر فيلسوفًا مسيحيًا لأنه يتحدث عن واقعة صلب المسيح باعتبارها أهم حدث تاريخي. ولكن رغم استبعاد معجم بلاكويل لاسمه، فإننا نجد أن اسمه ورد في الموسوعة اليهودية. وهناك أيضًا حالة نعوم تشومسكى، وهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث ويجيد العبرية وعاش بعض الوقت في إسرائيل، ومع هذا تهمله كل الموسوعات اليهودية ربما بسبب عدائه لإسرائيل والصهيونية. فهل موقف المثقف اليهودى السياسي يسقط عن إثنيته اليهودية؟

وإنكارنا لوجود ثقافة يهودية مستقلة ومثقفين يهود خالصين لا يعني إنكار وجود مكون يهودى أو عناصر يهودية مستقلة. كل ما نذهب إليه أن مثل هذه العناصر، إن وجدت، فليس لها مركزية تفسيرية، أى أنه لتفسير بنية فكر فيلسوف أو مفكر يهودى ما، وطبيعة أدب أديب يهودى ما، فعلينا تبنى نماذج تفسيرية مشتقة من الحضارة التى ينتمى إليها هذا المفكر أو الأديب اليهودى بدلاً من العودة للتوراة والتلمود وتاريخ العبرانيين والكنعانيين (كما يفعل الصهاينة والمعادون لليهود). فالنماذج

المشتقة من تلك الحضارة ذات مقدرة تفسيرية تفوق بمراحل مقدرة النماذج المشتقة من الثقافة اليهودية ويمكن دراسة العناصر اليهودية باعتبارها عناصر مكملة، دون أن تكتسب مركزية تفسيرية. انطلاقا من هذا الإطار التفسيرى نطرح فى **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** نموذجا تفسيريا جديدا، مشتقا من الحضارة الغربية الحديثة. فنحن نذهب إلى القول بأن هذه الحضارة قد هيمن عليها بالتدريج (منذ عصر نهضتها) ما نسميه بالنموذج الحلولى الكمونى. والحلولية الكمونية تعنى أن الإله قد حل فى المادة (الطبيعة والإنسان) واصبح غير مفارق لها، وبذلك أصبح العالم (الإنسان والطبيعة) مكتفيًا بذاته، لا يحتاج إلى قوة خارجة عنه، ويمكن تفسيره بدراسة قوانين الحركة الكامنة (الحالة) فيه، هذه الحلولية الكمونية هى الإطار الفلسفى العام للحضارة الغربية بعقلانيتها المادية منذ فرانسيس بيكون وديكارت مرورًا بهيجل وانتهاءً بنيتشه (الذى ذكّر أوربا بأن الإله الحال فى المادة قد مات وأصبح غير قادر على أن يعطى للعالم معنى). والحلولية الكمونية هى الأرضية التى يدخل عليها اليهود إلى الحضارة الغربية. وسيادة هذه الرؤية الحلولية الكمونية، أمر لا دخل لليهود فيه، وإنما خاضع لحركيات الحضارة الغربية.

هذا هو النموذج التفسيرى الأكبر. عند هذه اللحظة يمكننا أن ننظر إلى العناصر اليهودية فتراها تشير إلى أن العقيدة اليهودية ذاتها كانت قد أصبحت عقيدة حلولية كمونية بعد هيمنة القبالاه عليها منذ القرن الرابع عشر، وأن الميراث الحلولى للمثقفين اليهود فى العصر الحديث (ابتداءً

بإسبينوزا وانتهاءً بدريدا) قد ساهم ولا شك في جعلهم أكثر استعدادًا لقبول الحضارة الغربية الحديثة، بحلوليتها وكمونيتها. ويمكن أن نشير إلى تصاعد معدلات العلمنة بين الجماعات اليهودية، بدرجات تفوق المعدلات السائدة في المجتمع الغربي (كما هو الحال دائمًا مع الأقليات). ويمكن أن نشير كذلك إلى أن إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بالغربة وعدم الأمن (كما هو الحال أيضًا مع أعضاء الأقليات) جعلهم تربة صالحة وخصبة لتقبل الحضارة الغربية الحديثة.

الشك المعرفي والأخلاقي

ويمكن أخيرًا أن نذكر أن موقف كثير من المثقفين اليهود يتسم بأنه موقف نقدي جذري من الحضارة الغربية، يتسم بالشك المعرفي والأخلاقي وسيطرة الفلسفات العدمية. كل هذه العناصر اليهودية ساهمت ولا شك في أن تجعل المثقفين اليهود أكثر استعدادًا لتقبل الحضارة الغربية الحديثة وأكثر قدرة على التعبير عنها – أي أن المكون اليهودي في ثقافة المثقف اليهودي الغربي قد يفسر حدة نبرته وجذريتها وعمق عدميتها وحلوليتها. كما قد يفسر تزايد عدد المثقفين اليهود من الثوريين والعدميين ودعاة العقلانية المادية، ولكنه لا يفسر بأية حال ظهور المنظومة الحضارية الغربية الحديثة العقلانية المادية، فهذا مرتبط – كما أسلفنا – بآليات المجتمع الغربي، الثقافية والاقتصادية.

بل إننا نذهب إلى أن بروز أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية الحديثة، ناجم عن انتمائهم إلى هذه الحضارة واندماجهم فيها

واستيعابهم لها، لا انعزالهم عنها ويتزايد بروزهم بمقدار تخليهم عن عزلتهم واستقلالهم. وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودى بارز فى الحضارة الغربية الحديثة هو إسبينوزا الذى تخلى عن يهوديته. وقد أعلن هاينى أن التنصر هو تأشيرة الدخول للحضارة الغربية، فتنصر هو ذاته. وكما فعل أبو ماركس وأولاد هرتزل وأولاد موسى مندلسون ونصف يهود برلين فى القرن التاسع عشر.. إلخ). ولكن الأدق هو القول: إن التخلى عن العقيدة اليهودية (وليس بالضرورة التنصر) هو تأشيرة الدخول فليس مطلوبًا من أحد التنصر، باعتبار أن مرجعية الحضارة الغربية لم تعد المسيحية وإنما العقلانية المادية أو الحلولية الكمونية. وينبغى الإشارة إلى أن الكمون اليهودى قد ينصرف إلى بنية فكر المثقف اليهودى وإلى الموضوعات الكامنة، وليس إلى مضمونها الواضح. بل إنه يمكن أن يكون المضمون الواضح عالميًا وإنسانيًا بل ومعاديًا لليهود أو الصهيونية، وتظل البنية والمقولات الأساسية الكامنة يهودية بالمعنى المحدد الذى نطرحه، كما هو الحال مع إسبينوزا ودريدا وفرويد وكافكا. فإسبينوزا، وقف موقفًا رافضًا تمامًا لكل الأديان، بل واختص اليهودية بالهجوم الشرس، وهو فى هذا لا يختلف كثيرًا عن كثير من المفكرين الغربيين من عنصر النهضة، وهيمنة العقلانية المادية. ومع هذا لا يمكن فهم حدة هذا الرفض وهذا الهجوم إلا بالعودة للقبالاه اللوريانية والتراث المارانى.

واهتمام فرويد الحاد بالجنس يمكن رؤيته كتعبير طبيعى عن تصاعد معدلات العلمنة ومحاولة رد كل شىء إلى عنصر واحد كامن/حال (الجنس

فى حالة فرويد). ولكن القبالاه اللوريانية كانت قد قامت بإنجاز هذا معرفيًا وبشكل متبلور قبل ذلك بعدة قرون. وقد وصف أحد المراجع القبالاه بأنها جنَّست الإله، وألَّهت الجنس، أى جعلته نموذجًا تفسيريًا كليًا ونهائيًا، يُردُّ له كل شيء. وهذا ما فعله فرويد.

وتلجأ بعض المراجع لحيلة رخيصة لتأكيد وجود حضارة يهودية مستقلة وهوية يهودية ثقافية مستقلة نابعة منها، فتتحدث موسوعة الثقافة اليهودية عن هذا الزى «اليهودى الصميم» الذى يرتديه يهود المغرب والذى يسمَّى Keswa Kubra وهى «الكسوة الكبيرة»، وتُكتب الكلمة بحروف لاتينية دون ترجمة، فيتصور القارئ الذى لا يعرف العربية أن هذه كلمة عبرية أو كلمة عربية عبرية! ويوجد للزى اليهودى الصميم شيء يسمَّى Cum وهو الكم. ويأكل أعضاء الجماعات اليهودية فى بخارى طعامًا يهوديًا مميَّزًا يسمَّى Yachni أى الياخنى، أما فى اليمن فهم يأكلون طعامًا خاصًا للغاية لم نسمع عنه قط من قبل يسمَّى Khubz أى خبز.

أما فى إسرائيل، بلد العجائب، فيأكلون طعامًا موغلاً فى يهوديته اسمه Falafel أى الفلافل والتى اكتشفت أنها طعام إسرائيلى فريد حينما كنت أعيش فى مدينة نيويورك. ورؤساء يهود الفلاشاه، نوع خاص من الحاخامات، يسمونهم «قسيم» وهى صيغة الجمع العبرية لكلمة «قس» العربية (وربما الأمهرية) التى اقتبسها يهود الفلاشاه الذى دخلت على يهوديتهم عناصر مسيحية كثيرة! وحينما يحاول الإسرائيليون أن يرقصوا

فهم يرقصون رقصة يهودية صميمة تسمى «الهورا» (من أصل روماني) أو رقصة يهودية أخرى. تسمى «الدبكة»! وحينما ترتدى مضيفات شركة العال زى الفلاحة الفلسطينية، فهذا زى إسرائيلى نابع من الثقافة اليهودية. وحينما أسس متحف فى قرى حيفا على هيئة قرية عربية أخبر كتيب المعرض الزائر أن هذه قرية من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يمكن تحاشى ذكر كلمة «فلسطين»، وحتى يختبئ الأصل الحقيقى للمنتج الحضارى. لكن هل يمكن تأسيس ثقافة من خلال مثل هذا التلفيق الرخيص والعنف اللفظى الذى يبعث على الرثاء؟ قد ينجح الصهاينة فى تأسيس بعض المستوطنات من خلال العنف والبطش العسكرى، ولكن التجذر الحضارى أمر آخر والقلاع الصليبية المهجورة التى لا يبكى أحد على أطلالها، شاهد على ذلك.

لا يوجد استقلال ثقافى يهودى، ومن ثم فلا يمكن الحديث عن خصوصية يهودية، إذ إن مفهوم الخصوصية ليس له ما يسانده فى واقع اليهود الثقافى. فثقافات أعضاء الجماعات اليهودية بل ومعتقداتهم الدينية تتسم بقدر عالٍ من عدم التجانس النابع من وجودهم فى مجتمعات شتى يتكيفون مع حضاراتها ويستوعبونها ويستمدون خصوصياتهم منها (لا خصوصية يهودية واحدة عالمية، كما يدَّعى الصهاينة والمعادون لليهود) ولذا فقد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية، تمامًا مثل حديثنا عن ثقافات الجماعات اليهودية، لا عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مستمدة من معجم حضارى واحد.

الفصل الثالث

إشكالية الإحصاءات

حينما تنشر إحدى الصحف أن عدد سكان إنجلترا هو كذا فنحن عادةً ما نقبل هذا (كحقيقة صلبة)، فالأرقام أرقام، وكما نقول دائمًا (واحد + واحد = اثنين). ولطن الأرقام في واقع الأمر ليست حقائق صلبة، إذ يمكننا تفسيرها وتحليلها والوصول إلى نتائج مختلفة حسب المنهج الذى نتبعه. ولذا لو دققنا النظر لوجدنا أن بساطة الأرقام تخبىء الكثير من الإشكاليات. فيمكن مثلاً أن نسأل: هل هذا هو عدد سكان إنجلترا بمعنى المقيمين فيها، بما في ذلك المهاجرون واللاجئون السياسيون، أم أنها تعنى المواطنين الإنجليز؟ وإن كنا نعنى المواطنين الإنجليز، فهل هذا يضم من منهم على وشك الحصول على الجنسية؟ وهل يضم أيضًا المواطنين الإنجليز المقيمين في الخارج؟ وماذا عن الأقليات، هل ذُكرت أعدادهم؟ وهل هناك ذكر للأقلية الإسلامية، أم أن مفهوم الأقلية فى إنجلترا مفهوم عرقى وحسب؟ وهذا قليل من كثير.

يهودى بشكل ما

وإذا كان (تعداد) الشعب الإنجليزى مسألة خلافية، فإن تعداد اليهود إشكالية لم يظهر لها حل بعد. ومن أهم هذه الإشكاليات تعريف

(اليهودى): فهل اليهودى هو من يتبع تعاليم دينه أم أنه من يرى نفسه يهوديًا أم هو من يراه الآخرون كذلك؟ وفى هذا العالم التى تزايدت فيه معدلات العلمنة، يسود التعريف العلمانى للهوية اليهودية (اليهودى هو من يرى نفسه كذلك). وفى غياب مؤسسة دينية مركزية تقوم بعملية التعريف والفرز، تتداخل الحدود ويصعب تعريف اليهودى. ولذا، نجد أن بعضًا من غير اليهود قد يغيِّرون قناعاتهم فجأة ويقررون أنهم يهود، والعكس أيضًا ممكن.

ولإيضاح بعض جوانب المشكلة التى يجابهها دارسوا تعداد الجماعات اليهودية فى الولايات المتحدة، يمكن أن نشير إلى النقاط التالية:

١ - يضم **الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى** (١٩٩١) دراسة عن تعداد يهود العالم. وقد رأى كاتب المقال أن يتناول موضوعه من خلال ثلاثة تعريفات أو مستويات:

* القطاع الأساسى من السكان اليهود (بالإنجليزية: كور جويش بوبيوليشن core Jewish population) ويضم كل يهودى يعلن أنه يهودى بغض النظر عن كون مضمون يهوديته حقيقى أو وهمى، دينى أو إثنى، قوى أو ضعيف، وعادةً ما توضع هذه المجموعة مقابل القطاع الهامشى من السكان اليهود (بالإنجليزية: بريفيرال جويش بوبيوليشان peripheral Jewish population)، وهى تضم القطاعين التاليين:

* القطاع الموسع من السكان اليهود (بالإنجليزية: إكستندد جويش بوبيوليشن extended Jewish population) ويضم القطاع الأساسى إلى

جانب اليهود الذين تخلوا عن دينهم (وتبنوا أو لم يتبنوا دينًا آخر) ولكنهم من أصل يهودى.

* القطاع الممتد من السكان اليهود (بالإنجليزية: إنلارجد جويش بوبيوليشن enlarged Jewish population) وتضم إلى جانب القطاعين السابقين كل من يعيش فى بيت يهودى (سواء أكان يهوديًا أو غير يهودى).

وبطبيعة الحال ، تتزايد الأعداد وتتناقص حسب المعيار المُستخدَم. وفى عصر وصلت فيه نسبة الزواج المُختلَط إلى ما يزيد على ٥٠٪، فإن القطاع الثالث يضم عددًا كبيرًا للغاية، مع أن تَضخُّم هذا القطاع هو فى واقع الأمر دليل على تزايد اندماج اليهود واختفائهم. وقد بلغت الحيرة بأحد المراجع حدًا جعله يستخدم اصطلاح «يهودى بشكل أو آخر» «يهودى بشكل ما» (بالإنجليزية: جويش إن سم وبى Jewish in some way) لحل مشكلة التعريف.

٢ - نُشرت مؤخرًا دراسة ذكرت أن عدد يهود الولايات المتحدة هو ٦,٨ مليون. ثم أضافت الدراسة أن ١,٢ مليون منهم يهود لا يؤمنون باليهودية ويندمجون فى مجتمعهم بسرعة)ومن المؤكد أن أعدادًا كبيرة منهم ينضمون للعبادات الجديدة مثل البهائية وهارى كريشنا). ومنهم ٢,٣ مليون يمارسون عقيدة أخرى هى المسيحية، أى أنه بين ٦,٨ مليون يهودى يوجد ٢,٥ مليون يمارسون عبادات أخرى. وورد فى دراسة ثانية أن عدد يهود الولايات المتحدة

٨,٤٠٠,٠٠٠ وهو رقم أعلى بكثير من الرقم السـابق. ولكـن الدراسـة تضيـف أن مـن بينـهم٢,٧٠,٠٠٠مـن(أصـول يـهوديـة) ولا يعتـبرون أنفسهم يهودًا (أى أن العدد هو٥,٧٠٠,٠٠٠). والسؤال الـذى يطـرح نفسه هو: إن كان هؤلاء ليسوا يهودا من منظور الشريعة اليهوديـة، ولا من منظور الإثنية اليهودية، ولا من منظور أنفسهم أو جيرانهم، فلماذا تضمنهم التعـداد أساسًـا؟ وهـل الهـدف هـو خلـق إشـكاليات حيـث لاإشـكاليات؟أم الهـدف هـو زيـادة العـدد لتضخيـم (القـوة اليهودية)؟

٣ - من المشاكل الكبرى التى تواجه دارسـة تعـداد اليـهود فـى العـالم ، بخاصة فى الولايات المتحدة، أعضاء الزيجـات المُختلَطـة وأبنـاؤهم. فأحيانًا، يدخل يهودى فى علاقة زوجية مع طـرف غـير يـهودى، ثم يتهود الطرف الآخر بشكل صورى، ويعتبر نفسه يـهوديًا إرضـاءً للطرف اليهودى أو لعائلته. ثم قد يُصـر الطـرف اليـهودى علـى أن يكون الأطفال يهودًا، فيوافق الطرف غير اليهودى. ولكن ما يحدث فى معظم الأحيان أن الأطفال ينشـأون يـهودًا اسمًـا دون أن يكونـوا يهودًا فعلاً. ولأن اليهودية الأرثوذكسية لا تعترف بأبنـاء الزيجـات المُختلَطة، أو بالمتهودين على يد حاخام إصلاحى أو محافظ، أو بمن وُلد لأب يهودى، فإن هناك عددًا كبـيرًا مـن اليـهود فـى الولايـات المتحدة يهودا اسمًا وحسب، أو يـهود مـن وجهـة نظـر إصلاحيـة أو محافظة أو إثنية، ولكنهم غير يهود من وجهة نظر أرثوذكسية.

موت الشعب اليهودى

من القضايا التى تُثار الآن فى علم الاجتماع الغربى قضية (موت الشعب اليهودى)، وهى عبارة وضعها عالم الاجتماع الفرنسى (اليهودى) جورج فريدمان، وتشير إلى ظاهرة تناقص أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم إلى درجة اختفاء بعض هذه الجماعات وتحول الباقى منها إلى جماعات صغيرة (لا أهمية لها من الناحية الإحصائية). ورغم أن فريدمان طرح هذه الإشكالية فى الستينيات، إلا أنه تم رصدها مع بداية اختفاء اليهود الألمان (كُتبت عام ١٩٠٨) مما سماه الضعف السكانى الذى قد يؤدى إلى اختفاء يهود ألمانيا تمامًا. وفى عام ١٩٤٤ أشار يوريا إنجلمان فى كتابه **ظهور اليهود فى العالم الغربى** إلى ما سماه العملية ذات الأبعاد الثلاثة: تناقص المواليد - تزايد الوفيات - تزايد معدلات الاندماج، والتى ستؤدى إلى تفسخ السكان اليهود بالكامل.

يمكن أن نورد الأسباب التالية التى تؤدى إلى تناقص أعداد اليهود فعلاً (من دون حدوث مذابح أو انتشار أوبئة):

١ - تزايد معدلات الاندماج؛ فكثير من اليهود الذين يندمجون يخفون هويتهم اليهودية وانتماءهم اليهودى ويسجلون نفسهم بحسبانهم غير يهود. ويبلغ عدد اليهود الذين أخفوا هويتهم فى الاتحاد السوفيتى مليونًا ونصف المليون تقريبًا. كما يوجد الآلاف من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعميد أصدرها الفاتيكان لهم فى الإرهاب النازى وقد آثروا أن يحتفظوا بهويتهم الجديدة.

٢ – من أهم أسباب اختفاء اليهود الزواج المختلط إلى درجة لم يشهدها يهود العالم من قبل. وقد بلغت معدلات الزواج المختلط فى الولايات المتحدة ما يزيد على ٥٠٪، وبلغت فى الاتحاد السوفيتى أحيانًا ٨٠٪، وذلك فى الأماكن التى تقطنها أقليات يهودية صغيرة بعيدة عن مراكز التجمعات اليهودية الكبرى. وفى كثير من الأحيان يُسقط الزوج اليهودى فى الزيجة المختلطة هويته حتى لايسبب الحرج لزوجته. ولايعوض عدد المتهودين، من أجل الزواج، من عدد المتنصرين للسبب نفسه. ويلاحظ أنه بتأثير حركة التمركز حول الأنثى، بدأت الأنثى اليهودية، التى كانت تعد فى الماضى العمود الفقرى للهويات اليهودية تندمج فى المجتمع الذى تعيش فى كنفه بمعدلات تقترب من معدلات الذكور، وهى تُقبل الآن على الزواج المختلط بعد أن كان ذلك مقصورًا تقريبًا على الذكور. ويلاحظ أن أبناء الزواج المختلط يكونون عادةً إما غير يهود وإمَّا غير مكترثين باليهودية.

أما بالنسبة إلى انخفاض نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، فمن المعروف أنها تصل فى الوقت الحاضر إلى واحدة من أقل النسب فى العالم، إذ بلغت ١٦ فى الألف. ويعود ذلك إلى الأسباب التالية (مع ملاحظة أن بعض هذه الأسباب ليس مقصورًا على أعضاء الجماعات اليهودية، وإنما هو ظاهرة عامة فى المجتمعات الغربية التى توصف بـ«المتقدمة») :

١ – تفشى قيم المنفعة واللذة والفردية والأنانية فى المجتمعات المسماة متقدمة، وهى قيم تتناقض مع فكرة الأسرة والزواج وإنجاب الأطفال

وتنشئتهم، بكل ما يتضمن ذلك من قيد على الحرية وتخلٍ عن المتعة الحسية المباشرة.

٢ - الزواج المتأخر، وهو ظاهرة عامة في هذه المجتمعات ناجمة عن تصدع مؤسسة الأسرة، وعن امتداد الوقت الذى تستغرقه العملية التعليمية، وتأخر الاستقلال الاقتصادى للأبناء.

٣ - تزايد عدد الشذاذ جنسيًا فى هذه المجتمعات بنسبة تصل فى بعض مدن الغرب إلى ٣٠٪، وهناك نسبة عالية منهم من أعضاء الجماعات اليهودية. وينتمى معظم الشذاذ إلى المرحلة العمرية النشيطة جنسيًا، وهذا يعنى أن عددًا كبيرًا من الذكور والإناث ينسحب من عملية الإنجاب.

٤ - انسحاب كثير من النساء من عملية الإنجاب فى المجتمعات المسماة متقدمة بتأثير من حركة التمركز حول الأنثى، التى تجعل أى نشاط أنثوى خاص (مثل الإنجاب) أمرًا سلبيًا أو معوقًا لنشاط المرأة فى الحياة العامة. ومن المعروف أن عددًا كبيرًا من قيادات هذه الحركة من اليهوديات، وأن نسبة اليهوديات المنخرطات فيها تفوق المعدل القومى.

٥ - تفسخ الأسرة اليهودية وتزايد نسبة الطلاق، وهما أمران يزيدان فى الإحجام عن الإنجاب.

٦ - تركز أعضاء الجماعات اليهودية فى المدن، فهناك خمس مدن أمريكية تضم أكثر من نصف الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة

(تضم نيويورك ١,٤٥٠,٠٠٠، لوس أنجلوس ٤٩٠,٠٠٠، شيكاغو الكبرى ٣٤٨,٠٠٠، ميامى ١٩٩,٠٠٠، فيلادلفيا ٢٥٠,٠٠٠). وأكثر من نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية (٢٠٠,٠٠٠) موجود فى بوينس أيريس، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا (٦٣,٠٠٠) موجوزد فى جوهانسبرج، وأكثر من نصف يهود فرنسا (٣٨٠,٠٠٠) موجود فى باريس، وهكذا. أما النصف الثانى فموزع على مدن كبرى أخرى، أى أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهودية موجودة فى مراكز حضرية، ومن المعروف أن المدن لم تستطع عبر التاريخ أن تحتفظ بكثافتها السكانية من خلال التزايد الطبيعى، لأن سكان المدن من أقل القطاعات البشرية خصوبة.

وقد أدى هذا كله إلى تناقص عدد المواليد. كما أن مستوى العناية الصحية آخذ فى التحسن، وهو ما يؤدى إلى زيادة معدلات العمر ونسبة كبار السن الذين يعتبرون شريحة غير خصبة من السكان. ويلاحظ أن ١٦٪ من أعضاء الجماعات اليهودية تتجاوز أعمارهم ٦٥ عامًا، وتصل نسبة المسنين بينهم إلى ٢٩٪ أحيانًا.

وقد أدى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، حتى أصبحت واحدة من أقل النسب فى العالم. وأى جماعة إنسانية، حتى تعيد إنتاج نفسها بيولوجيًا، لابد أن تنجب الأنثى التى ينتمى إليها ٢,٩ طفل فى المتوسط. لكن المرأة اليهودية فى الولايات

المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة في العالم، فالإناث في المرحلة العمرية ٣٥ - ٤٤ ينجبن ١,٥٧ طفلاً، أما المرحلة العمرية ٢٥ - ٣٤ (وهي المفروض أكثر المراحل خصوبة) فالإناث ينجبن فيها ٠,٨٧. أي أقل من طفل واحد، مما يدل على أن منحنى التناقص آخذ في الازدياد.

وقد بلغ عدد اليهود ١٣,٨٣٧,٥٠٠ عام ١٩٦٧، وبلغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ عام ١٩٨٢، أي أن عدد اليهود نقص بنحو المليون في هذه الفترة دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعي. ويبلغ عدد اليهود حاليًا ١٣,٠٩٢,٠٠٠- أي أن عددهم ظل ثابتًا قرابة ربع قرن. ويتوقع معهد اليهودية المعاصرة التابع للجامعة العبرية بالقدس أن يصل عددهم إلى ١٣,٤٢٨,٠٠٠ عام ٢٠١٠. ولكن هناك توقعات أكثر تشاؤمًا من منظور صهيوني. فيذهب صموئيل لايبرمان ومورتون واينفيلد إلى أن عدد يهود الولايات المتحدة سيصل إلى ٣,٩ مليون عام ٢٠٧٠. أما إلياهو برجمان (بمركز هارفارد للدراسات السكنية) فهو أكثر تشاؤمًا إذ يرى أنه حينما تحتفل الولايات المتحدة بعيدها المئوى الثالث (٢٠٧٦) لن يتجاوز عدد اليهود ٩٤٤,٠٠٠ (أي أقل من مليون). مع ملاحظة أن كلمة (يهودى) - كما أسلفنا - يتلاعب بها الديموجرافيون اليهود حتى يزيدوا من أعداد اليهود في العالم. وفيما يلي إحصاء بعدد اليهود في العالم حاليًا (عام ٢٠٠٠) وبعد عشرة أعوام (٢٠١٠):

أمــاكن التواجــد	العــــدد الحالى	العــدد المتوقع في عام ٢٠١٠
إسرائيل	٤,٧٩٠,٠٠٠	٥,٦٤٤,٠٠٠
أمريكا الشمالية	٦,٠٦٢,٠٠٠	٥,٩٣٩.٠٠٠
أمريكا الوسطى والجنوبية	٤٢٨,٠٠٠ (تضم الأرجنتين وحدها ٢٠٢ ألف)	٣٩٨,٠٠٠
أوربا	١,١٣٨,٠٠٠ (تضم فرنسا وحدها ٥٢٢ ألف)	١,٠٦٦,٠٠٠
الاتحاد السوفيتى السابق	٥٤٠,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠
آسيا وشمال أفريقيا	٢٨,٠٠٠	٢٦,٠٠٠
جنوب أفريقيا + منطقة المحيط الهندى	١٩٥,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠
الإجمـالى	١٣,٠٩٣,٠٠٠	١٣,٤٢٨,٠٠٠

المصدر : معهد اليهودية المعاصرة المسمى باسم (أ. هيرمان) والتابع للجامعة العبرية بالقدس.

ويُقال إن نصف يهود العام سيكونون فى إسرائيل بحلول منتصف القرن المقبل، وليس ذلك بسبب الهجرة ،وإنما بسبب نقص الجماعات

اليهودية فى الخارج، واختفاء معظمها، وتركز أغلبيتها فى الولايات المتحدة.

ولذا يمكننا القول إن يهود العام سينقسمون إلى قسمين أساسيين:

١ - أمة تتحدث بالعبرية فى إسرائيل، ليس لها سوى علاقة واهية بالعقيدة اليهودية أو بالتاريخ اليهودى (أى تواريخ الجماعات اليهودية). وتعتمد فى وجودها على حكومة الولايات المتحدة، وتوجهها الحضارى استهلاكى متأمرك. ويمكن أن نستخدم هنا مصطلح جورج فريدمان للإشارة إلى الإسرائيليين بأنهم (أغيار يتحدثون العبرية).

٢ - جماعة يهودية فى الولايات المتحدة، تنقسم بدورها إلى قسمين:

(أ) قلة صغيرة متمسكة بتعاليم الدين اليهودى، وتحاول قدر استطاعتها أن تُنفِّذ تعاليمه وتفهم شعائره.

(ب) أغلبية باهتة الهوية لا تُمارس الشعائر الدينية، وإنما تُقيم بعضها باعتباره شكلاً من أشكال الفلكلور. وهى تحاول أن تحافظ على بقايا الموروث الثقافى اليهودى الذى يعود بجذوره إلى شرق أوربا، على الرغم من تزايد معدلات أمركتها.

وهذا يعنى أن الدياسبورا اليهودية ستصبح أساسًا الدياسبورا الأمريكية، أو الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة، أى أن أعضاء الجماعات اليهودية ستصبح جزءًا لا يتجزأ من الشعب الأمريكى، بعد

أن كانت جزءًا لا يتجزأ من التشكيل الاستيطانى الغربى (فى أمريكا الشمالية واللاتينية وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا). وإذا أخذنا فى الاعتبار اعتماد إسرائيل شبه الكامل على الولايات المتحدة، فإنه يمكننا القول بأن يهود العالم سيعيشون فى القرن المقبل داخل الولايات المتحدة، أو أنهم سيدورون فى فلكها الحضارى والاقتصادى والسياسى.

ستة مليون ؟!

بدأت ظاهرة (موت الشعب اليهودى) مع نهاية القرن التاسع عشر، بعد حدوث الطفرة السكانية الثانية (التى سنتناولها فى الفصل الثالث)، أى قبل الحربين العالميتين الأولى والثانية. وهنا يمكن أن نطرح قضية (ستة الملايين). هل تم حرق ستة الملايين كما يرد فى كثير من المراجع الغربية، أم أن أعدادًا منهم اختفت من خلال التناقص الطبيعى؟ ويمكن أن نشير إلى أن ثمة عناصر أخرى ساعدت على تصعيد هذا التناقص فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر يمكن أن نذكر منها ما يلى:

١ – أسباب تؤدى إلى العزوف عن الإنجاب وإلى تناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر.

(أ) أدَّت الهجرة اليهودية الكبرى فى نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ويُقال إن هجرة اليهود قضت تقريبًا على اليهود فى المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عامًا، وهى مرحلة الخصوبة التى تجعل بإمكان الجماعة أن تُعيد إنتاج نفسها. والإنسان المهاجر أقل خصوبة من الإنسان المستقر.

(ب) كـان أعضـاء الجماعـات اليهوديـة فـى الغـرب يضطلعـون بـدور الجماعة الوظيفية الوسيطة، أى بأعمال التجارة والمـال. وكـانوا، لهذا، مركزيـن إمـا فـى المـدن أو المنـاطق شـبه الحضريـة. ومـع منتصف القرن التاسع عشر، تصاعد هذا الاتجاه وتزايـد تركزهـم فى المدن بحيث أصبحـت أغلبيتـهم السـاحقة تسـكن فـى المـدن عشية الحرب العالمية الثانية.

(جـ) كانت هناك عناصر أخرى أدَّت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب، من بينها تحسن مسـتواهم المعيشـى، والقلـق الـذى كـان يعيشـه أعضاء الجماعات اليهودية فى الفترة بين الحربين وإبان الحرب العالمية الثانيـة، وكذلـك تزايـد معـدلات العلمنـة وبالتـالى زيـادة التوجه نحو اللذة وتحقيق الذات، الأمر الذى يقوض من الرغبـة فى إنجاب الأطفال.

وبالفعل يُلاحَظ تناقض أعداد اليهود وضمنهم يهود اليديشية. فبعد أن كانوا يتمتعـون بـأعلى نسـبة خصوبـة وتَكـاثر بـين شـعوب الإمبراطوريـة القيصرية فـى منتصف القـرن التاسـع عشـر، انخفضـت النسـبة إلى أقـل النسـب علـى الإطـلاق فـى عـام١٩٢٦. فبعـد أن كـانت٣٥,٩ فـى الأف، انخفضت إلى٢٤,٨ فى الألف. وفى بولندا، انخفضت النسبة من٢٨,٦ فى الألف عام١٩٠٠ إلى١٢,٣ فى الألف عام١٩٢٥ فى وارسو، وإلى ١١,٦ فى الألف فى لودز عام ١٩٢٥. أما يهود المجر، فقد انخفضت النسبة بينهم من ٣٣,٩١ فى الألف فى بداية القرن الحالى إلى١٠,٥ فى الألف، أى أنها

انخفضت نحو ٢٣,٤ فى الألف. وكانت نسبة المواليد فى بروسيا (ألمانيا) ٥,٢ فى الألف عام ١٩٣٥ و٢فى الألف فى لندن عام١٩٣٢. وقد حدا هذا الوضع بالكُتّاب اليهود إلى التحذير من أن يهود أوربا قد يختفون تمامًا لأن معدلات المواليد لا تعوض الوفيات. وعلى مستوى العالم ، كانت النسبة ٣٥,٥ فى الألف فى الفترة ١٨٢٢ - ١٨٤٠، انخفضت إلى ١٩,٧ فى الألف فى الفترة١٨٩٨ - ١٩٠٢، ثم إلى٩,١ فى الألف عام ١٩٢٩. كما أنها انخفضت إلى ما دون ذلك لمدة عشرين عامًا (١٩٢٩ - ١٩٤٩). وكان معدل نسبة المواليد فى الفترة ١٩٠٦ - ١٩١٠ هو ٣٢ فى الألف، ونسبة الوفيات ١٥ فى الألف، والزيادة الطبيعية هى ١٧ فى الألف. ثم انخفضت إلى نحو النصف فى نحو خمسة وعشرين عامًا، ففى الفترة ١٩٢٦-١٩٣٠ كانت نسبة المواليد هى٢١فى الألف والوفيات١٢فى الألف، والزيادة الطبيعية ٩ فى الألف (انخفضت إلى ٨ فى الألف عام ١٩٣٢). ولا توجد إحصاءات عن الفترة ١٩٣٥ - ١٩٤٩ لأنها كانت فترة الحرب، كما أنها أصبحت موضوعًا يحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه، وإن كان يمكن القول: إن منحنى الانخفاض كان آخذًا فى الهبوط لأن الأسباب التى كانت تؤدى إليه لم تختلف، وإنما ازدادت حدة.

٢ - عوامل تؤدى إلى الاختفاء:

(أ) ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية، وهو أمر جديد كل الجدة، إذ كانوا يتمتعون

بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك، كمـا سـقط منـهم ضحايـا بأعداد كبيرة فى الحرب العالميـة الأولى والحـرب العالميـة الثانيـة. لكن هذا العنصر لا يؤدى إلى انقاص عدد اليهود مباشرة عن طريـق سقوطهم قتلى وحسب وإنما بشـكلٍ غـير مباشـر أيضًـا عـن طريـق معدل العزوف عن الإنجاب. كما أن العنـاصر القـادرة علـى القتـال هى عادة من الذكور فى سـن الخصوبة.

(ب) تَنصُّر أعداد كبيرة من اليهود، وهـو شـكل مـن الأشـكال الحـادة للاندماج. وقد تزايد المعدل عشية الحرب العالميـة الثانيـة لأسـباب عملية منها الهرب من بطش النازى. كما حصل كثـير مـن اليـهود على شهادات تعميد مـن الكنيسـة الكاثوليكيـة حتـى يتيسـر لهـم دخول أمريكا اللاتينية. وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر.

(جـ) ينطبق الشيء نفسه علـى مئـات الألـوف مـن الذيـن هـاجروا إلى روسيا السوفيتية هربًا من النازى. فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودى، خصوصًا وأن الاتحاد السوفيتى (سابقًا) كان يترك لكـل شخص أن يحدد انتماءه، فلو كان الشخص يـهوديًا وعـرَّف نفسـه بأنه (روسى) أو (أوكرانى) فإن الأمر كان متروكًـا لـه. ومـع تـآكل الهوية اليهودية، لم يعد هناك دافع قـوى لـدى كثـير مـن اليـهود للإفصاح عن هويتهم.

٣ - ظروف الحرب العالمية الثانية:

لابد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التى صعدت من كل العناصر السابقة وزادتها حدة، ولابد أن نأخذ فى الاعتبار انتشار الأوبئة وسوء التغذية فى نفس الفترة. كما ينبغى الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز، مثل أعمال السخرة وعزل اليهود فى الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف، وهو ما كان يعنى المزيد من الجوع والمرض. ويُقال: إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبهم بهذه الطريقة،وإنه كان من المتوقع لهم جميعًا أن يُبادوا تمامًا خلال عدة أعوام. (وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة، إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع. ولكننا نذكر هذا العنصر أيضًا حتى تكتمل الصورة لدينا). كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءًا من عدم توفر الرعاية الصحية، وانتهاءً بالغارات على المدن، مرورًا بأحكام الإعدام التى كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم.

وإذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه العناصر يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء ستة الملايين يهودى (أو حتى أربعة الملايين حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كتصفية جسدية متعمدة فحسب.

نعم! قد يكون عدد اليهود الذين (اختفوا) هو ستة ملايين، ولكن هل (حُرق) جميعهم فى أفران الغاز النازية؟ هل الأرقام حقائق صلبة فعلاً؟!

الفصل الرابع

الهجرة والاستيطان

عادةً ما يتم النظر إلى تعداد أعضاء الجماعات اليهودية حسب توزيعهم الجغرافي «في جميع أنحاء العالم». لكن إذا نظرنا إلى توزيعهم من منظور تاريخي حضاري فستظهر صورة مختلفة تمامًا. ولننظر الآن إلى أكبر تسع جماعات يهودية في العالم (حسب إحصاءات أوائل التسعينيات، ورغم أن الأعداد قد تغيَّرت بعد ذلك إلا أنها لم تتغيَّر بشكل جوهري، كما أن النمط العام لم يتغيَّر).

الدولـــة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	نسبتهم إلى يهود العالم
الولايات المتحدة	٥,٥١٥,٠٠٠	٤٣,١٪
إسرائيل	٣,٧١٧,٠٠٠	٢٩,٠٪
الاتحاد السوفيتي (سابقًا)	١,٣٧٠,٠٠٠	١٠,٧٪
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٤,١٪
بريطانيا العظمى	٣٢٠,٠٠٠	٢,٥٪
كندا	٣١٠,٠٠٠	٢,٤٪
الأرجنتين	٢١٨,٠٠٠	١,٧٪
جنوب أفريقيا	١١٤,٠٠٠	٠,٩٪
البرازيل	١٠٠,٠٠٠	٠,٨٪

نلاحظ فى هذا الجدول أن ٩٥,١٪ من يهود العالم يعيشون فى تسعة مراكز رئيسية، بما فى ذلك الدولة الصهيونية، وأن ٨٢,٤٪ منهم يعيشون فى ثلاث دول فقط. ونلاحظ أيضًا أن البلاد التى تضم جماعات يهودية تنتمى إلى ما يمكن تسميته التشكيل العرقى الأبيض. ففى الأرجنتين، حيث أعلى نسبة من البيض فى أمريكا اللاتينية، توجد أيضًا أعلى نسبة من اليهود. أما فى البرازيل فتكاد تكون الاستثناء الوحيد من القاعدة، ومع هذا فإننا نجد أن نسبة السكان من أصل أبيض عالية فى المدن، حيث يتركز اليهود. ولا يوجد اليهود فى الاتحاد السوفيتى السابق إلا بنسبة ضئيلة فى الجمهوريات الآسيوية، إذ إنهم يتركزون أساسًا فى روسيا وأوكرانيا.

ويمكن تقسيم البلاد التى تعيش الأغلبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية فى كنفها إلى قسمين أساسيين لا ثالث لهما: ٢٢٪ فى أوربا والاتحاد السوفيتى سابقًا، أى داخل التشكيل الحضارى الغربى، و ٧٧٪ داخل التشكيل الاستيطانى الغربى (٤٣,١٪ فى الولايات المتحدة، و ٥,٨٪ فى دول استيطانية أخرى مثل كندا والأرجنتين وجنوب إفريقيا والبرازيل، و ٢٩٪ فى إسرائيل).

الجماعة الوظيفية

لتفسير هذه الظاهرة (أى وجود غالبية أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضارى والاستيطانى الغربى) يمكننا استخدام مفهوم

الجماعة الوظيفية (أو جماعة المتعاقدين الهامشيين الغرباء)، وهم جماعة من البشر تستجلبهم المجتمعات التقليدية من خارج المجتمع (وأحيانًا تجندهم من داخله). لتوكل إليهم وظائف لا يمكن لأعضاء المجتمع ذاته القيام بها، إما لأنها وظائف مشينة (جمع النفايات) وإما لأنها متميزة وتتطلب خبرة معينة غير متوفرة عند أعضاء المجتمع المضيف (الطب - الترجمة)، وإما لأنها تتطلب معرفة بأدوات خاصة، أو امتلاك رأس مال، أو المقدرة على ارتياد مناطق نشاط جديدة (صناعات جديدة - تجارة).

ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بأنهم مجرد أداة في يد الحاكم، وعلاقتهم به ليست علاقة حب أو كره وإنما علاقة تعاقد، وهو يقوم بعزلهم حتى يظلوا منبوذين من المجتمع ومهددين من جماهيره ليبقوا أداة طيعة في يده. وأعضاء الجماعة الوظيفية لا يدينون بالولاء لأحد (فهم يخافون أعداءهم ويدخلون في علاقة تعاقدية مع أصدقائهم أو أولياء نعمتهم)، لكنهم يحتفظون بعلاقة ولاء قوية لجماعتهم الوظيفية أو لوطنهم الأصلي، ويتسمون بالحركية الفائقة بسبب عدم ارتباطهم بأحد. ومن أهم الجماعات الوظيفية: الجماعات الوظيفية المالية (المرابون والتجار)، والجماعات الوظيفية القتالية (المماليك والساموراي)، والجماعات الوظيفية الاستيطانية (الصينيون في ماليزيا والهنود والبيض في جنوب إفريقيا). ويمكن للجماعة الوظيفية الواحدة أن تضطلع بوظيفتين أو ثلاث وظائف في وقت واحد: مالية واستيطانية وقتالية (اليهود في الدول الهيلينية في

مصر، حيث كانوا يوطنون كجماعة استيطانية تقوم بجباية الأموال وحماية الثغور لمصلحة السلطة الهيلينية الحاكمة).

ولا يمكن أن نفهم حركة الجماعات اليهودية في العصر الحديث، وسر تركزهم في بُقع معينة دون غيرها وفي تشكيل حضاري دون غيره، إلا من خلال مفهوم الجماعة الوظيفية هذا. إذ يبدو أنه منذ بداية التاريخ، اضطلع عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصًا في العالم الغربي) بدور الجماعة الوظيفية، فكانوا جماعة استيطانية قتالية أواستيطانية مالية. ولعل هذا يعود إلى ضعف الدولة العبرانية وتخلفها التكنولوجي وإلى ضعف موارد فلسطين بصورة عامة، وصغر حجمها، الأمر الذي جعلها قاصرة عن استيعاب المصادر البشرية. ولذا، كان لابد من تصديرها والتخلص منها لزيادة موارد الدولة (باعتبار أن المادة البشرية سلعة تُصدَّر) وللقضاء على مصادر القلق الاجتماعي. وقد كانت أول دياسبورا عبرانية هي الحامية العبرانية في جزيرة إلفنتاين قرب أسوان (في أوائل القرن السادس ق. م.)، حين قام ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية بتوطين بعض الجنود العبرانيين في هذه الجزيرة لحماية حدود مصر الجنوبية. وكان الهدف من التهجير الآشوري - البابلي، في وجه من وجوهه، الاستفادة من الجماعات الموالية لها في أرجاء الإمبراطورية، وكان من بينها بعض الجماعات العبرانية. وقد حولت حامية إلفنتاين ولاءها إلى السلطة الفارسية بعد غزوها مصر. وقد

تعمق هذا النمط تمامًا مع الدول الهيلينية (السلوقية في سوريا والبطليمية في مصر)، ثم وصل إلى ذروته في القرن السادس عشر في بولندا/ أوكرانيا، حيث كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جماعة استيطانية وتجارية وقتالية في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا، فكان الوكلاء اليهود يستأجرون عوائد ضياع النبلاء البولنديين (الشلاختا) في أوكرانيا ويديرونها لحساب هؤلاء النبلاء. وقد شيَّد النبلاء لهم ولأسرهم مدنًا صغيرة تسمى «الشتتل»، يعيشون فيها تحت حماية القوة العسكرية البولندية ليتفرغوا لعملية استغلال الأقنان الأوكرانيين واعتصار فائض القيمة منهم. وكان على رجال الجماعة اليهودية الاستيطانية أن يتدربوا على حمل السلاح، بل كانوا أيضًا يتعبدون في معابد تأخذ شكل القلاع المسلحة وفي صراع الدولة البولندية الغازية مع الفلاحين الأوكرانيين، كان اليهود هم علامة الهيمنة البولندية. ولذا، كان أحد المطالب الرئيسية للحركة الشعبية الوكرانية عدم السماح لليهود بالاستيطان في أوكرانيا (تمامًا مثلما كانت حركة المقاومة الفلسطينية تطلب وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين)، بينما كانت الدولة البولندية الغازية تصر على ضرورة الاعتراف بحق اليهود في الاستيطان (مثل إصرار العالم الغربي على فتح أبواب فلسطين المحتلة للهجرة اليهودية) ويجب أن نتذكر أن يهود بولندا/ أوكرانيا كانوا يشكلون أكبر جماعة يهودية في العالم في القرن السابع عشر، وأنهم أخذوا يزدادون عددًا، إلى أن أصبح معظم يهود العالم من نسلهم. وهذا يعني أن الاستيطان جزء مهم للغاية من التجربة

التاريخية للجماعات اليهودية فى الغرب، وأنهم دخلوا العصر الحديث وعندهم قابلية عالية للاشتراك فى العمليات الاستيطانية.

الهجرة الاستيطانية

فى هذا الإطار، يمكننا أن نفهم نمط هجرة أعضاء الجماعات اليهودية، فهى حركة تنقل تتم دائمًا داخل إطار حركة الإمبراطوريات الكبرى التى تيسر لهم هذا التنقل، وتتيح لهم فرص الحراك، وتوظفهم كجماعة وظيفية استيطانية أو مالية. وإذا كان التهجير البابلى قد تم قسرًا، فإن حركة الهجرة العبرانية (اليهودية)، التى تعاظمت بالتدريج حتى وصلت إلى ذروتها مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد (حين أصبح عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من ضعف عددهم داخلها)، كانت هجرة تلقائية بحثًا عن الفرص الاقتصادية، وتمت فى إطار الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. وهجرة يهود شرق أوربا التى توجهت بأعداد هائلة إلى الولايات المتحدة وكندا، وغيرها من الدول الاستيطانية، حتى انتقلت الكتلة البشرية اليهودية من أوربا (روسيا/ بولندا) إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) هى الأخرى هجرة تمت داخل إطار إمبراطورى، إذ انها تمت داخل التشكيل الاستعمارى الغربى وتجربته الاستيطانية فى أنحاء العالم.

وقد اشترك أعضاء الجماعات اليهودية فى كثير من الأنشطة المرتبطة بالاستيطان الغربى، مثل أنشطة شركتى الهند الشرقية والغربية

الهولندية، وغيرهما من الشركات، وتجارة العبيد. كما اشتركت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية فى عملية الاستيطان ذاتها. وفى بداية الأمر كان أعضاء الجماعة جزءًا من النشاط الاستيطانى الهولندى، فاستوطنوا ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر جزر الهند الغربية (مثل ترينيداد وسورينام والمارتينيك وجمايكا وجزر الباهاما). لكن سورينام كانت أهم التجارب الاستيطانية الأولى. وقد بدأ وصول اليهود إليها من هولندا سنة ١٦٣٩، ثم من إنجلترا سنة ١٦٥٢، فكُفلت لهم جميع الحريات والمزايا. ومُنح اليهود الجنسية الإنجليزية. وبعد أن ضم الهولنديون سورينام مرةً أخرى سنة ١٦٦٧، حاول بعض اليهود الرحيل مع الرعايا البريطانيين، لكن الهولنديين أرغموهم على البقاء فيها بوصفهم جماعة استيطانية نافعة. وقد تركز اليهود فيما يسمى يودين سافانا، أى سافانا اليهود، وأسسوا مستوطنة يهودية فى برزدينتس أيلاند سنة ١٦٧٠. وكانت المستوطنة تلك تتمتع بما يشبه الاستقلال الكامل (ومن ثم فهى أول دولة يهودية استيطانية). وكان اقتصاد المستعمرة يعتمد على العبيد الذين كانوا يشقون الطرق ويزيلون الغابات والأعشاب، فأقاموا مدينة جديدة محاطة بالطرق. وقد بلغ عدد سكان المستوطنة ١٠ آلاف نسمة سنة ١٧١٩، وكانت أغلبيتهم من العبيد. وكان العبيد المستجلبون من إفريقيا يهربون ويلجأون إلى الأحراج ويختلطون بسكان الجزيرة الأصليين، فيضطر سكان المستوطنة إلى استجلاب المزيد من العبيد من إفريقيا الذين كانوا يهربون بدورهم وينضمون إلى السكان الأصليين. ثم

بدأت جماعات العبيد الأفارقة والسكان الأصليين تشن هجمات على المستوطنة فى فترة ١٦٩٢ - ١٧٧٤. وكوَّن المستوطنون البيض مليشيات عسكرية وشددوا الحملات ضد الثوار (تمامًا كما تفعل الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين)، لكن الإرهاق الناتج من الحرب وانتشار الأمراض أديا إلى انتصار السود والسكان الأصليين على الدويلة اليهودية الاستيطانية.

وقد استوطن اليهود أيضًا فى معظم بلاد أمريكا اللاتينية، وخصوصًا فى الأرجنتين التى وطَّن المليونير هيرش فيها آلاف اليهود، والتى كانت تعد أهم تجربة استيطانية زراعية، باستثناء تجربة الدولة الصهيونية فى العصر الحديث.

ويلاحظ أن هذه الأنشطة الاستيطانية كانت تدور إما فى إطار الاستعمار الهولندى أو فى إطار الاستعمار الإسبانى - البرتغالى، والمادة البشرية الأساسية هنا هى يهود السفارد (المارانو). لكن مصدر المادة الاستيطانية الحقيقة كان يهود اليديشية (الأشكناز) من شرق أوربا، الذى كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من يهود العالم مع نهاية القرن التاسع عشر. وكان النشاط الاستيطانى الأكبر ليهود اليديشية داخل التشكيل الاستيطانى الأنجلو ساكسونى، فاتجه ملايين اليهود إلى جنوب إفريقيا وكندا ونيوزيلندا وأستراليا وهونج كونج، لكن أغلبيتهم (٨٥٪) اتجهت إلى الولايات المتحدة - أهم التجارب الاستيطانية - ثم إلى إسرائيل التى تلى الولايات المتحدة فى الأهمية.

إن الإطار التفسيرى السابق يجعلنا نرى مدى ارتباط الجماعات اليهودية فى العالم (العالم الغربى بالذات) بالتشكيل الاستعمارى الاستيطانى الغربى، ونضع يدنا على الحقائق الأساسية التالية فى واقع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم:

١ - الدياسبورا اليهودية (أى انتشار أعضاء الجماعات اليهودية فى أرجاء العالم). ليس انتشارًا عشوائيًا وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعمارى الغربى، وخصوصًا فى جانبه الاستيطانى. فهجرة أعضاء الجماعات اليهودية لا تحددها حركيات ما يسمَّى «التاريخ اليهودى» أو ما يسمَّى «الطبيعة اليهودية»، وإنما تحددها حركيات الاستعمار الغربى، ولاسيما الاستعمار الأنجلو ساكسونى.

٢ - لا تشكل إسرائيل استثناء لهذه القاعدة؛ فهى جزء من نمط ومن حركية غربية هى الإمبريالية الغربية التى جعلت العالم مسرحًا لنشاطها، سواء فى أستراليا أو أمريكا اللاتينية أو جنوب إفريقيا أو فلسطين. فالمشروع الصهيونى هو جزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعمارى الاستيطانى فى الغرب، وما كان يمكنه أن يتحقق من دون إمكانات الإمبريالية الغربية ومن دون طموحاتها أو آلياتها.

واستيطان اليهود فى فلسطين هو نقل لفائض بشرى غربى إلى بقعة فى آسيا أو إفريقيا، حيث يتم تحويل هذا الفائض وهذه الجماعة الوظيفية التى فَقَدت وظيفتها إلى دولة وظيفية استيطانية تقوم على خدمة مصالح

الغرب لقاء أن يقوم هو على حمايتها. فإسرائيل من هذا المنظور هى إعادة إنتاج لنمط قديم. ووعد بلفور، ثم دعم حكومة الانتداب للمستوطن الصهيونى، ثم دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وتوقيع الاتفاق الإستراتيجى معها. كل هذا يبين أن الدولة الصهيونية امتداد لارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالاستعمار الاستبطانى الأنجلو ساكسونى.

٣ - بل يمكن القول إن يهود الشرق والعالم الإسلامى قد تم تحويلهم إلى مادة استيطانية تابعة للتشكيل الاستيطانى الغربى من خلال مدارس الأليانس، والدعاية الصهيونية، وهجرة أعداد ضخمة من اليهود الأشكناز إلى العالم العربى، إذ إن هذه العمليات كلها أفقدتهم مختلف هوياتهم المحلية وأحلت محلها هوية يهودية عالمية اسمًا، لكنها استيطانية فعلاً، جوهرها فك الصلة بين اليهودى ووطنه ومن ثم استيعابه فى المنظومة الاستيطانية. وفعلاً، حينما أعلن إنشاء إسرائيل، هاجرت الأغلبية الساحقة من يهود البلاد العربية إلى إسرائيل.

ويمكن القول بشىء من التبسيط غير المخل إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور فى الوقت الحالى حول مركزين أساسيين هما: شرق أوربا (روسيا/ بولندا) كقوة طاردة وكمصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كقوة جاذبة أساسية، وباعتبارها التجربة الاستيطانية الكبرى. وهناك إلى جانب هذا وذاك مراكز طرد وجذب ثانوية: فأما مصادر الطرد الثانوية فهى باقى بلاد شرق أوربا وأمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا وبقايا يهود

الشرق والعالم الإسلامى. وأما مناطق الجذب الثانوية فهناك كندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربا، وغيرها.

وتمثل إسرائيل الآن نقطة مبهمة، فهى مصدر طرد ، حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق، حيث إنها تحقق حراكًا اجتماعيًا لهم. وهى تمثل أيضًا محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الوصول مباشرةً إلى الولايات المتحدة أو لأولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها.

وإذا استبعدنا سكان المستوطن الصهيونى، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون حاليًا وعلى نحو أساسى، فى الولايات المتحدة وبضعة بلاد أخرى ناطقة بالإنجليزية (كندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا). ولذا، يمكننا القول إن اللغة التى يتحدث أعضاء الجماعات اليهودية بها هى الإنجليزية، لاالعبرية أواليديشية. ويلاحظ أن الجماعات اليهودية فى أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى السابق وأوربا أخذة فى الذوبان، وأن عدد أعضائها فى أمريكا اللاتينية آخذ فى التناقص السريع ومن خلال الحركيات التى تؤدى إلى «موت الشعب اليهودى».

الدياسبورا الدائمة :

يدَّعى الصهاينة أن اليهود شعب قد طُرد من وطنه وشُتت فى أرجاء الأرض بعد أن هدم تيتوس الهيكل. وبالفعل نجد أن عدد يهود العالم خارج فلسطين بعد هدم الهيكل أقل بكثير من عددهم خارجها، فنؤمن

بشتات اليهود وأنهم نُفوا قسرًا من ديارهم، وأنهم يودون العودة. وأنهم هائمون على وجوههم فى كل بقاع الأرض بسبب غياب الوطن القومى.

ولكن مرة أخرى، لو دققنا النظر، وتناولنا الأرقام بطريقة مختلفة فإن الصورة تختلف تمامًا. فمن المعروف أن عدد اليهود قد وصل إلى ما بين خمسة وثمانية ملايين يهودى فى القرن الأول قبل الميلاد. ويُجمع المؤرخون كافة على أن عدد اليهود فى فلسطين كان لا يشكل سوى ثلث عدد يهود العالم، وذلك قبل أن يهدم تيتوس الهيكل؛ أى أن الفكرة القائلة بأن اليهود مرتبطون ارتباطًا أزليًا بصهيون (فلسطين) وأنهم لا يتركونها إلا قسرًا هى فكرة تتنافى مع واقع التاريخ. فالدياسبورا، أو الشتات اليهودى، مسألة طوعية، وليست مرتبطة بعملية إكراه خارجية. وحالة الدياسبورا حالة دائمة بغض النظر عما كان يحدث فى فلسطين. بل إنه حينما يتجه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها، فإن ذلك ينبع من حركيات لا علاقة لها بصهيون. وعلى كل، ها هى الدولة الصهيونية قد فتحت بواباتها داعية يهود العالم إلى المجِىء إليها، فهى تعانى أزمة سكانية، غير أن يهود العالم لا يأتون إلا قسرًا أو من خلال الرشوة السخية (كما حدث مع اليهود السوفيت)؛ إذ أن الأغلبية الساحقة تفضل البقاء فى، أو التوجه إلى، الولايات المتحدة (بابل الحديثة)، التى يشار إليها باليديشية بأنها «جولدن مدينا»، أى البلد الذهبى - أرض الميعاد الاستهلاكية التى تفوق فى جاذبيتها أرض الميعاد الصهيونية.

الانعزالية اليهودية

ويدَّعى الصهاينة أن اليهود يعيشون في حالة عزلة دائمة ثم يشيرون إلى بعض الحقائق الصلبة للتدليل على ذلك. ولكن قراءة الواقع والأرقام بطريقة مختلفة يبين كذب ما يقولون. فيهود بابل، على سبيل المثال، اندماجوا فى محيطهم الحضارى وانصهر يهود آشور فى محيطهم. ويمكن أن نشير إلى تأغرق يهود الإسكندرية ونسيانهم لغتهم فى الدولة البطلمية، ولذا كان لابد من ترجمة العهد القديم إلى اليونانية. وإذا كان عدد اليهود قد وصل بالفعل فى القرن الأول الميلادى إلى ما بين ٥ و ٨ مليون، كان من المفروض أن يصل عددهم إلى خمسين أو ربما مائة مليون فى القرن السادس الميلادى مع بدايات العصور الوسطى فى الغرب والعصر الإسلامى فى الشرق. لكن يلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية فى ذلك التاريخ كان يتراوح بين مليون واحد ومليونين (تركز أغلبهم فى العالم الإسلامى). وقد ظل عددهم دون تغيير ملحوظ حتى القرن الخامس عشر الميلادى. ولنا أن نلاحظ انخفاض عدد اليهود إلى الخُمس، على الرغم من عدم حدوث هجمات أو عمليات إبادة ضخمة ضدهم أو انتشار أوبئة. ولذا لا يمكن تفسير هذا الانخفاض إلا بأن عملية الاندماج والانصهار والذوبان كانت مستمرة على قدم وساق، أى أن فكرة الانعزالية اليهودية ومقدرة اليهود على مقاومة الاندماج هما مجرد أسطورة تتنافى مع الحقائق التاريخية، فأعضاء الجماعات اليهودية- شأنهم شأن جميع الأقليات والجماعات الأخرى- خاضعون لحركيات إنسانية عامة يؤدى بعضها إلى العزل والعزلة، ويؤدى بعضها الآخر إلى الاندماج والانصهار.

طفرتان سكانيتان

من الأساطير الأخرى التى يروِّج لها الصهاينة أن ثمة نـزوع أزلى لـدى «اليـهود» نحـو العـودة إلى فلسـطين، فالإنسـان اليـهودى – حسـب هـذا التصور – يحس بالاغتراب إن ابتعد عن وطن أسلافه. ومثل هـذا الادعـاء يخفى عنا الأسباب السياسية والاجتماعية الحقيقة التـى أدت إلى انتشـار الفكر الصهيونى والعداء لليهود فى نفس الوقت. والربط بين الاتجاهين قد يبدو أن فيـه كثـيرا مـن التنـاقض، ولكننـا لـو أمعنـا النظـر لأكتشـفنا أن الصهيونية ليست حركة دفاع عن اليهودية – وإنما هى محاولة لتخليص أوربا من اليهود. ولفهم هذا حق الفهم يجب أن ننظر للبُعـد اليموجرافـى لظهور الصهيونية.

١ – الطفرة السكانية الأولى:

تقول التقديرات التخمينية : إن تعداد العبرانيين فى عام ١٠٠٠ ق. م بلغ نحو ١,٨٠,٠٠٠. ولكن هناك من يذهب إلى أن هذا العدد مُبالغ فيـه. ففلسطين بلد صغير، مواردها فقيرة، ومستوى تطور سـكانها التكنولوجـى آنذاك كان منخفضًا، فكيـف كـان مـن المكن أن تمـد مثـل هـذا العـدد بأسباب الحياة (مع العلم بأن عدد سكان مصر آنذاك بكل إمكاناتها كـان ستة ملايـين)؟ لعـل فقـر فلسـطين آنـذاك ووقوعـها بـين الإمبراطوريـات العظمى فى الشرق الأدنى القديم جعلها نقطـة عبـور لكثـير مـن جيوشـها ونقطة ارتكاز لها. وقد أدى هذا إلى هجرة أعـداد كبـيرة مـن العـبرانيين، ليعملوا كجنود مرتزقة فى البلاد المجاورة، أو كتجار فـى حـوض البحـر المتوسـط، أى أن هـذا هـو بدايـة مـا يسـميه الصهاينـة «الشـتات» أو «الدياسبورا».

مهما كان الأمر، تناقصت أعداد العبرانيين حتى بلغ نحو مليون ومائة ألف نسمة حوالى عام ٧٢٠ ق. م . ثم انخفض هذا العدد مع التهجير الآشورى والبابلى (٧٢١ ق. م على التوالى) فلم يتجاوز عدد العبرانيين ١٥٠ ألف. وهذا الرقم الأخير يُلقى بظلال كثيفة من الشك على الأرقام المليونية السابقة، لأن الآشوريين والبابليين كانوا يقومون بتهجير أعضاء النخب الحاكمة للأقوام التى يهزمونها وحسب، مما يعنى أنهم كانوا يتركون أغلبيتهم فى مواطنهم. وقد انصهر معظم المهجَّرين العبرانيين فى البلاد التى هُجِّروا إليها (ومن هنا الحديث عن «الأسباط العشرة المفقودة» والتى يجب أن تصبح فى واقع الأمر «الأسباط العشرة المنصهرة») كما ازداد اندماج من تبقى من العبرانيين فى فلسطين والشعوب المحيطة بها.

ولكن مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد حدثت طفرة سكانية إذ بلغ عدد اليهود آنذاك – حسب بعض التقديرات التخمينية – كما أسلفنا – ما بين خمسة وثمانية ملايين، بينما تذهب بعض التقديرات التخمينية الأخرى إلى أن عددهم لم يتجاوز خمسة ملايين. وتعود هذه الطفرة لعدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية (اليهودية) بتهويد بعض القبائل والشعوب المجاورة التى وقعت تحت سيطرتها، كما أن الفريسيين قاموا بحركة تبشيرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد طوّروا مفهومًا لليهودية جعل منها ديانة عالمية منفتحة (على عكس اليهودية الحاخامية أو التلمودية التى جاءت بعدها). كما أن ما يسمَّى الأمن الرومانى «باكس رومانا» الذى ساد المناطق التى كان يعيش فيها أعضاء الجماعات

اليهودية قد وفَّر لهم الأمن والطمأنينة، الأمر الذى ساعدهم على التكاثر. واشتغال اليهود بالتجارة كان يعنى ابتعادهم عن المهام القتالية مما يعنى أنه لم يسقط من بينهم قتلى. ويُقال إنه مع سقوط قرطاجة انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية باعتبارهم جميعًا ساميين ينتمون إلى نفس التشكيل الحضارى ويعملون بنفس المهنة (التجارة). ولعلهم فعلوا ذلك حتى يستفيدوا من شبكة التجارة اليهودية.

٢ - الطفرة السكانية الثانية :

وقد بدأت الطفرة السكانية الثانية والأخيرة بين اليهود بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ حتى بلغ عددهم عشية الحرب العالمية الثانية ١٦,٧٢٤,٠٠٠ كما هو مبيَّن فى الجدول التالى:

السنة	العدد الإجمالى
١٨٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
١٨٤٠	٤,٥٠٠,٠٠٠
١٨٦٠	٦,٥٠٠,٠٠٠
١٩٠٠	١٠,٥٠٠,٠٠٠
١٩٣٠	١٥,٩٠٠,٠٠٠
١٩٣٩	١٦,٥٠٠,٠٠٠

وتعود هذه الطفرة إلى عدة أسباب من بينها تحسُّن الأحوال الصحية فى العالم الغربى نتيجة الثورة الصناعية، خاصةً بين اليهود نظرًا لأن

مستواهم المعيشى كان أعلى من مستوى غالبية السكان. نضيف إلى هذا أن المستوى الثقافى العام بين أعضاء الجماعات اليهودية كان أعلى من مستوى الفلاحين السلاف. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على نوعية الطعام الذى يستهلكونه وأدى إلى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية. كما أن الرقابة على الطعام بين الجماعات كانت قوية نظرًا لتطبيق قوانين الطعام. وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية من التماسك، الأمر الذى يُشجِّع على الإنجاب، ويضمن الرعاية الصحية للأطفال مما يخفض نسبة الوفيات بينهم.

ويُقال إن زواج اليهود فى سن مبكرة كان من أهم العناصر التى ساهمت فى تزايد عددهم. وأخيرًا لم تشهد الأماكن التى تركزت فيها الجماعات اليهودية فى الفترة بين عامى ١٨٠٠ - ١٩٨٤ أى حروب، كما أن كثيرًا من الدول كانت لا تجنِّد أعضاء الجماعات اليهودية. وحسب الجدول السابق نجد أن عددهم زاد ستة أضعاف فى غضون قرن ونصف. وكان معظمهم يتركزون فى شرق أوربا، خاصةً بولندا/ روسيا. وقد تزامنت هذه الطفرة السكانية مع تعثر التحديث فى روسيا القيصرية، مما جعل الاقتصاد الروسى غير قادر على استيعاب الأعداد المتزايدة من أعضاء الجماعات اليهودية، مما أدى إلى ظهور جو معادٍ لليهود داخل روسيا وملائم لظهور الصهيونية، التى تطالب بتخليص أوربا من اليهود. وبدأت جحافل اليهود تهاجر إلى بلاد أوربا الوسطى والغربية.

وقد أدى تزايد عدد اليهود إلى تفاقم المسألة اليهودية فى البلاد التى كانوا يهاجرون إليها (باستثناء البلاد الاستيطانية مثل الولايات المتحدة

وكندا وأمريكا اللاتينية نظرًا لحاجتها لمادة استيطانية). ولعل حالة النمسا وإنجلترا (باعتبارهما مهد الفكرة الصهيونية ووعد بلفور على التوالى) يصلحان كمثالين على ما نقول. فى عام ١٨٤٦ كان عدد يهود فيينا (التى كان يقطن فيها هرتزل مؤسس الصهيونية) ٣,٧٣٩ يهوديًا فقط لا غير، وصل عددهم إلى ١٥ ألف عام ١٨٥٤، وبلغ ٢٠١,٥١٣ عام ١٩٢٣. ولاشك فى أن وجود مثل هذه الكتلة البشرية الغريبة وبهذا الشكل المفاجئ جعل الكثير من أعضاء الأغلبية يتصورون - إن صدقًا أو كذبًا - أن هذه الكتلة هى مصدر البطالة وكثير من الأمراض الاجتماعية وأنها تهدد الأمن الاجتماعى، مما ولَّد موقفًا معاديًا لليهود ورغبةً فى التخلص منهم باعتبارهم فائضًا بشريًا غير منتج وغير منتمٍ (وهذا هو ذاته الموقف الصهيونى). وفى هذا المناخ ظهر هرتزل، الصحفى النمساوى المندمج تمامًا فى مجتمعه، ومؤسس الفكر الصهيونى. وقد تبنى كثير من اليهود المندمجين فى بلاد وسط أوربا وغربها هذا الفكر، باعتباره دفاعًا عن أنفسهم وعن مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية التى كان يهددها هؤلاء المهاجرون من يهود اليديشية، والذين كانوا يحملون معهم عقلية جيتوية وشعور عميق بعدم الاطمئنان دون أن تكون لديهم الخبرات اللازمة للاندماج فى مجتمعاتهم الجديدة.

إنجلترا والمسألة الصهيونية

ويمكننا الآن أن نتناول الوضع فى إنجلترا. كان يوجد فى إنجلترا عام١٨٤٥ حوالى ٢٥ ألف يهودى فقط لا غير، وصل عددهم ٢٤٢ ألف

عام ١٩١٠، وكان عدد كبيرٌ من المهاجرين تجارًا وحرفيين صغارا، وأدى تواجدهم بهذه الأعداد الضخة إلى ازدياد البطالة وازدحـام المدن وانتشـار الجريمة. ولذا ظهرت توترات شديدة لا بينهم وبين المجتمـع الإنجليـزى وحسب، وإنما بينـهم كوافديـن (مـن الأشكناز) وبـين اليـهود الأصليـين (وكان معظمهم من السفارد) وكان هذا الفريق الأخير يشـعر بـأن الوافديـن يهددون ما حققوه من مكاسب اجتماعية وطبقية.

ويلاحظ أن الاشتراكيين الإنجليز المعارضين للإمبريالية قد ذهبوا إلى أن مجموعـة صغـيرة مـن المولـين الدوليـين «ألمـان فـى أصلـهم ويـهود فـى عنصرهم» حققوا نفوذًا قويًا فى جوهانسـبرج (فـى جنـوب أفريقيـا). وقـد وصفوهم بأنهم «الحثالة الحقيقية» لأوربا، يسيطرون على حقـول الذهـب ويحتكرون صناعة الديناميت وتجارة الكحول السرية. كما يتحكمـون مـع سيسل رودس فى الصحافة. ويتلاعبون بسوق الرقيـق، ويديـرون الأعمـال التجارية الأساسية فى كل من جوهانسبرج وبريتوريا. كما يُلاحَظ أيضًا أن أعدادًا كبيرة أيضًا من يهود إنجلترا، خصوصًا يهود اليديشـية، انخرطـوا فى صفوف الحركات اليسارية والعمالية والعدمية. وأدّى إلى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بكل مـن أقصـى اليمـين والرجعيـة، وأقصـى اليسـار والثورية، فى وقت واحد.

فى هذا الجو، شُكلت لجنة خاصة لمناقشة هجـرة يـهود شـرق أوربـا. وقدمت حكومة بلفور، الذى كان يشـغل منصـب رئيـس الـوزراء آنـذاك، مشـروع قـانون عـام ١٩٠٢ يُسمّى «قـانون الغربـاء» الـذى ووُفـق عليـه.

عام١٩٠٥ للحد من الهجرة. وفى هذا الإطار، طُرحت الفكرة الصهيونية، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية. وزار هرتزل إنجلترا لأول مرة عام ١٨٩٥ وألقى خطبة فى حىّ إيست إند عن موضوع الهجرة، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية بينه وبين يهود اليديشية. ثم عُقد المؤتمر الصهيونى الرابع (١٩٠٠) فى لندن. وحيث إن يهود إنجلترا الأصليين كانوا من كبار معارضى المشروع الصهيونى، توجه هرتزل أساسًا إلى يهود االيديشية، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيونى كرقعة تلتقى فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية. وفى عام ١٩٠٢، نجح أحد أصدقاء هرتزل فى دعوته للمثول أمام اللجنة الملكية، حيث قدَّم حلاً صهيونيًا مفاده تحويل الهجرة من إنجلترا إلى أية بقعة أخرى خارج أوربا. وانطلاقا من هذا، عُرض مشروع شرق أفريقيا، ثم صدر وعد بلفور، أهم حدث فى تاريخ الصهيونية، الذى جاء انتصارًا للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترا، وللفكر الصهيونى على يهود العالم.

الفصل الخامس

علاقة الصهيونية بالمسيحية

موضوع علاقة الصهيونية بالمسيحية موضوع خلافـى ومركـب، متعـدد الأبعاد، يحتاج إلى كثير من التـأمل وإعـادة النظـر فـى المصطلحـات ومـا تخفيه مـن مفـاهيم، فـهو ليـس بموضـوع دينـى محـض، وإنمـا لـه بُعـد سياسى. ولذا نجد أن بعضًا ممن له مصلحة يقوم بلـىّ عنـق المصطلحـات ليفرض عليها مفاهيم معينة حتى يمكنه توظيفها لصالحه. وهذا مـا فعلـه الصهاينة وأنصارهم. ومع الأسف هناك فى العالم العربـى مـن ينقـل مـا يرد لنا من مصطلحات، ثم يرددها ببغائية مذهلة، دون أن يـدرك عمليـة التشويه التى تمت، والتى لا تخدم إلا صالح أعداء الوطن والأمة.

وقد اخترقت مثل هذه المصطلحات الخطاب التحليلـى العربـى. خـذ على سبيل المثال مصطلحًا مثل «الحروب الصليبية»، هذه ترجمة للكلمـة الغربية (الإنجليزية) crusade نسبة إلى cross ، أى الصليب. وهى تعنى أن الحملات الصليبية كانت حملات مسيحية، بينمـا يعـرف أى دارس لهذه الواقعـة التاريخيـة أنـها كـانت حمـلات استعمارية حتـى النخـاع والمسيحية بريئة منها. وقد أدرك المؤرخـون العـرب والمسـلمون المعـاصرون لهذه الحملات طبيعتها الاستعمارية الاستيطانية، ولذلك كـانوا يسـمونها

«حروب الفرنجة» نسبة إلى غالبية العنصر البشرى الذى قام بالغزو والسلب والنهب (الذى أتى أساسًا من بلاد الفرانك، أى فرنسا). وهو غزو وسلب ونهب لم يكن يُفرِّق بين المسلم والمسيحى واليهودى، ولذا قامت بعض هذه الحملات التى يقال لها «صليبية» بسلب بيزنطة عاصمة المسيحية الشرقية، بل يقال إن هذه الحملات أنهكت قوى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، الأمر الذى جعل سقوطها فى يد العثمانيين فيما بعد أمرًا يسيرًا. وفى عصرنا الحديث، بدلاً من استخدام المصطلح العربى القديم الدقيق، الدال على طبيعة الظاهرة، قمنا بترجمة المصطلح الغربى، الذى يحاول إخفاءها وتعميتها.

وإذا كان هذا هو الحال مع مصطلحات واضحة البراءة مثل «الحروب الصليبية» و «المسألة اليهودية» فما بالكم بمصطلحات مثل «التراث اليهودى المسيحى» و «الصهيونية المسيحية» اللذين شاع استخدامهما فى الآونة الأخيرة. وهما مصطلحان يفهم منهما أن ثمة علاقة قوية، بل عضوية، بين اليهودية والمسيحية وبين المسيحية والصهيونية. وقد بلغ المصطلحان من الذيوع أن كثيرًا من الناس يتقبلونهما وما يعبران عنهما من مفاهيم، باعتبار أنهما من البديهيات. ولكن الرؤية المتفحصة لهذين المصطلحين تبين أن علاقتهما بالواقع واهية لأقصى حد، وأنهما مصطلحان «أيديولوجيان» بمعنى أنهما لهما مضمون فكرى متحيز لأيديولوجيات بعينها (الإمبريالية والصهيونية).

وأنا أذهب إلى أنه يوجد عنصر أخلاقي مشترك بين الديانات الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام (يصلح أساسًا لعقد اجتماعى جديد). ولكن إلى جانب نقط الاتفاق الأخلاقية توجد نقط اختلاف، بعضها جوهرى، فى رقعة أصول الدين أو لاهوته. ومصطلح «التراث اليهودى المسيحى» يتجاهل مثل هذه الاختلافات، فهو يفترض أن اليهودية والمسيحية يكوِّنان كلاً واحدًا. وهو ادعاء له ما يسانده بشكل جزئى داخل النسق الدينى المسيحى ولكنه لا يعبِّر بأية حال عن الصورة الكلية إذ أنه يتجاهل حقائق دينية أساسية. فهناك الاختلافات الأساسية الواضحة بخصوص طبيعة الإله وعلاقته بالبشر. كما يختلف موقف اليهودية والمسيحية من الخطيئة بشكل جوهرى، فالمسيحية تؤمن بأن الإنسان ساقط بسبب الخطيئة الأولى. أما اليهودية، فلا تؤمن بالخطيئة الأولى. ولذا فإن أداء الشعائر، واتباع الأوامر والنواهى، فى السياق اليهودى، كافيان لخلاص الإنسان. أما فى المسيحية (الكاثوليكية على الأقل) لابد من قيام الكنيسة والكهنوت بعملية الوساطة حتى يتم الخلاص، فلا خلاص خارج الكنيسة.

وثمة خلافات بين العقيدتين حول فكرة المسيح، فبينما ترى اليهودية المسيح باعتباره شخصية سياسية قومية سيقود شعبه إلى صهيون ويعيد بناء الهيكل ويؤسس الملكة اليهودية مرة أخرى، فإن المسيح فى المسيحية إله/إنسان مهمته خلاص كل البشرية لا الشعب اليهودى

وحسب. (ولذا فنحن فى كتاباتنا عن الصهيونية واليهودية نشير إلى المسيح المخلِّص اليهودى بكلمة «الماشيَّح»، أى نستخدم المنطوق العبرى حتى نفرِّق بين النسقين الدينيين).

وتُعدُّ قضية صلب المسيح قضية أساسية ونقطة خلاف رئيسية. فمن المعروف أن كل أمة أو مجموعة عرْقية أو دينية تؤمن بأنها مدينة بوجودها لشكل من أشكال التضحية والفداء الرمزى أو الفعلى الذى يكتسب مكانة رمزية ويصبح بمثابة الركيزة النهائية للنسق ولحظة التأسيس. وحادثة الصلب فى المسيحية هى هذه اللحظة، حين نزل ابن الإله إلى الأرض وارتضى لنفسه أن يُصلَب، وكان فعله هذا الفداء الأكبر. ولحظة الصلب هذه ليست لحظة زمنية، رغم حدوثها فى الزمان، ولا ترتبط بفترة تاريخية معينة رغم وقوعها فى التاريخ، فهى كونية. وفى احتفالات الجمعة الحزينة يحاول المسيحى المؤمن أن يستعيد آلام المسيح، هذه الواقعة الكونية التى لا يمكن أن تنافس واقعة أخرى. واليهود عنصر أساسى فى حادثة الصلب، فكهنتهم وحاخاماتهم هم الذين حاكموا المسيح وهم الذين أصروا على صلبه، فهم قتلة الرب، الذين يقتلونه دائمًا، بإنكارهم إياه.

ورغم المحاولات العديدة، المسيحية واليهودية، لتغيير هذه البنية الرمزية للوجدان المسيحى، فإن مثل هذه المحاولات لا تُكلَّل بالنجاح نظرًا لأن المجال الرمزى يتسم بقدر من الثبات ولا يخضع بسهولة للأهواء

والتيارات السياسية المتغيرة. ولذا فكثيرًا ما تنشب الصراعات فجأة وبلا مقدمات حين يقوم بعض المسيحيين بتمثيل بعض المسرحيات الدينية التى تبرز الرموز المسيحية وتسقط على اليهودى دور قاتل الرب. وقد نشب صراع حول أوشفيتس كان فى جوهره صراعًا حول الرموز ومعناها. فحادثة الإبادة (الهولوكوست)، أصبحت فى الوجدان اليهودى لا تختلف كثيرًا عن حادثة الصلب فى الوجدان المسيحى. ولذا حين أقامت بعض الراهبات الكرمليات ديرًا فى هذا المعتقل لإقامة الصلاة على الضحايا من أى عرْق أو دين أو جنسية اعترض ممثلو أعضاء الجماعات اليهودية، لأن هذا يعنى فرض لحظة الصلب المسيحية، على لحظة الصلب اليهودية!

وثمة رأى داخل المسيحية يقول بأن العهد الجديد لم ينسخ العهد القديم، ولكنه مع هذا حل محله وتجاوزه. ومع أن الكنيسة لم تستبعد العهد القديم، فإن الإيمان المسيحى يستند إلى أن الشريعة (أو القانون) قد تحققت من خلال المسيح وتم تجاوزها، وأن الرحمة الإلهية والإيمان بالمسيح وسيلة للخلاص حلت محل الشريعة والأوامر والنواهى، ومن ثم كان رفض الشعائر الخاصة بالطعام والختان التى تَمسَّك بها اليهود. وقد ذهب المسيحيون إلى أن اليهودية دين الظاهر والتفسير الحرفى دون إدراك المعنى الداخلى أو الباطن، وأن الكنيسة هى يسرائيل فيروس، أى يسرائيل الحقيقية، وأنها يسرائيل الروحية، أما اليهود فهم يسرائيل الزائفة الجسدية التى لا تدرك مغزى رسالتها. وبالتالى، فَقَد اليهود

دورهم، وأصبحت اليهودية ديانة متدنية بالنسبة إلى المسيحيين. ووُصِفَ اليهود بأنهم شعب يحمل كتبًا ذكية ولكنه لا يفقه معنى ما يحمل.

لكل هذا، أعادت الكنيسة تفسير العهد القديم بحيث اكتسب مدلولاً جديدًا مختلفًا تمامًا عن مدلوله عند اليهود الذين استمروا في شرحه وتفسيره على طريقتهم، وفهمه فهمًا حرفيًا وحلوليًا وقوميًا. ومن ثم اختلف النسق الديني اليهودي عن النسق لديني المسيحي. ومن أهم أشكال الاختلاف أن المسيحية أصبحت دينًا عالميًا، باب الهداية فيه مفتوح للجميع، على عكس اليهودية التي ظلت دينًا حلوليًا مغلقًا مقصورًا على شعب أو عِرْق بعينه يظل وحده موضع الحلول الإلهي. ثم تَعمَّق الاختلاف بحيث أصبحت للمسيحيين رؤية مختلفة تمامًا عن رؤية اليهودية.

وقد تبدَّى كل هذا في شكل صراع تاريخي حقيقي، فقد رفض اليهود المسيح (عيسى بن مريم) ولا يزالون يرفضونه. ويلوم الآباء المسيحيون الأوائل اليهود باعتبارهم مسئولين عما حاق بالمسيحيين الأولين من اضطهاد، وأنهم هم الذين كانوا يهيجون الرومان ضد المسيحيين ويلعنون المسيحيين في المعابد اليهودية، وأنهم هم المسئولون في نهاية الأمر عن صلب المسيح. وهم يرون أن هدم الهيكل وتشتيتهم هو العقاب الإلهي الذي حاق بهم على ما اقترفوه من ذنوب (وتشكِّل معاداة اليهود، باعتبارهم قتلة الرب، جزءًا أساسيًا وجوهريًا من التراث الفني الديني المسيحي من موسيقى ورسم ومسرحيات).

وقد استمر الصراع إلى أن تغلبت المسيحية فى نهاية الأمر على اليهودية، وانتشرت بين جماهير الإمبراطورية الرومانية. واستمر من تَبقّى من اليهود فى الإيمان باليهودية ويعبِّرون عن رأيهم، فى كتب مثل التلمود والقبَّالاه، يتحدثون عن المسيح والمسيحيين بنبرة سلبية وعنصرية للغاية.

وقد تَحدَّد موقف الكنيسة (الكاثوليكية) من اليهود فى مفهوم الشعب الشاهد، وهو أن اليهود هم الشعب الذى أنكر المسيح الذى أرسل إليهم، وهم لهذا قد تشتتوا عقابًا لهم على ما اقترفوه من ذنوب. ولكن رفض اليهود للمسيح سر من الأسرار، فاليهود فى ضعفهم وذلتهم وتشرُّدهم يقفون شاهدًا على عظمة الكنيسة، أى أن اليهود بعنادهم تحولوا إلى أداة لنشر المسيحية.

ومن ثم يمكننا أن نقول: إن العلاقة بين اليهودية والمسيحية علاقة عدائية متوترة إلى أقصى حد، واستخدام مصطلح «التراث اليهودى المسيحى» فيه محاولة لطمس معالم ونقط الاختلاف الجوهرية بين العقيدتين حتى يمكن زيادة الدعم الغربى للدولة اليهودية، والحصول على رضاء الجماهير الغربية على هذا الدعم الذى يتنافى مع القيم المسيحية والأخلاقية الإنسانية.

الصهيونية المسيحية

والمصطلح الثانى الذى نود تناوله هو مصطلح «الصهيونية المسيحية»، الذى انتشر فى اللغات الأوربية وتسلَّل منها إلى اللغة العربية. هذا

المصطلح يضفي على الصهيونية صبغة عالية تربطها بالمسيحية ككل، وهو أمر مخالف تمامًا للواقع، إذ ليس هناك صهيونية مسيحية في الشرق. بل إن أوائل المعادين للصهيونية بين عرب فلسطين كانوا من العرب المسيحيين، وأول مفكر عربي تنبأ بأبعاد الصراع العربي - الصهيوني وبمدى عمقه هو المفكر المسيحي (اللبناني الأصل الفلسطيني الإقامة) نجيب عازوري. كما أن الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تعارضان الصهيونية على أساس عقائدي ديني مسيحي. وإن حدث تقارب ما (كما هو الحال مع الفاتيكان)، فإن ذلك يتم مع دولة إسرائيل ولاعتبارات عملية خارجة عن الإطار الديني العقائدي إلى حدٍ كبير. وهناك في الغرب المسيحي البروتستانتي عشرات من المفكرين المسيحيين الذين يرفضون الصهيونية على أساس ديني مسيحي أيضًا. ولذا، فإن مصطلح «الصهيونية المسيحية» غير علمي نظرًا لعموميته ومطلقيته. ومن هنا يجب الحديث عن «الصهيونية ذات الديباجة المسيحية»، فهي صهيونية غير مسيحية بأية حال، بل صهيونية استمدت ديباجتها (عن طريق الحذف والانتقاء) من التراث المسيحي دون الالتزام بهذا التراث بكل قيمه وأبعاده، ودون استعداد منها لأن يُحكَم عليها من منظوره الأخلاقي. وفي تصوُّرنا أن هذا هو الفارق بين أية عقيدة دينية وأية عقيدة علمانية، فالمؤمن بعقيدة دينية يؤمن بمجموعة من القيم المطلقة المتجاوزة لإرادته (فهي ليست من إبداعه ولا من إبداع غيره من البشر)، ومن ثم يمكن تقييمه وتقييم سلوكه من منظور هذه القيم. أما العقيدة العلمانية، فهي

مجموعة من القيم النسبية المتغيرة،ولايمكن أن يُحاكَم الإنسان العلمانى من منظورها إذ بوسعه أن يرفضها ويتنكر لها ويعدِّلها بما يتفق مع مواقفه المتغيِّرة واحتياجاته المتطورة وأهوائه المتجددة ورغباته التى لاتنتهى. ولذلك فإن المسيحيين الذين يقومون بتعديل عقيدتهم لتتفق مع رؤيتهم ومصالحهم السياسية، يقومون بتطويع العقيدة الدينية لأهوائهم السياسية.

وتستند الصهيونية المسيحية إلى العقيدة الألفية الاسترجاعية التى تعود جذورها إلى اليهودية وإلى كثير من العقائد الشعبية، ولكنها مع هذا أصبحت فكرة مركزية فى المسيحية البروتستانتية. إذ يؤمن كثير من المسيحيين البروتستانت بأنه حينما يعود المسيح المخلِّص(الذى يُشار إليه بأنه «الملك الألفى») سيحكم العالم (باعتباره الملك المقدَّس) هو والقديسون لمدة ألف عام يشار إليها أحيانًا باسم «أيام المسيح» أو «الألف السعيدة»، وهى فترة سيسود فيها السلام والعدل فى عالم التاريخ والطبيعة وفى مجتمع الإنسان والحيوان.

وكما تبدأ الألف السعيدة، لابد أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيدًا لمجيء المسيح. ومن هنا، فإن العقيدة الاسترجاعية هى مركز وعصب العقيدة الألفية. ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هى بشرى ألف العام السعيدة، وأن الفردوس الأرضى الألفى لن يتحقق إلا بهذه العودة. كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار القديم أو الأول (باعتبار أن المسيحيين هم شعب الله المختار الجديد أو الثانى). ولذا، فإن أرض فلسطين هى أرضهم التى وعدهم الإله بها، ووعود الرب لا تسقط

حتى وإن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح (وصلبه). ولذا، فإن كل من يقف في وجه هذه العودة يُعتبَر من أعداء الإله ويقف ضد الخلاص المسيحي، فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ويُلاحَظ هنا أن الفكر الحلولي المسيحي - شأنه شأن الفكر الحلولي اليهودي - يجعل اختيار الإله لليهود ليس منوطًا بفعلهم الخير وتحاشيهم الشر، فهي مسألة عضوية حتمية تتجاوز الخير والشر. كما أنه جَعْل الخلاص مسألة مرتبطة باليهود، ومَنْح اليهود مركزية في رؤيا الخلاص.

ومن الواضح أن العقيدة الاسترجاعية، شأنها شأن العقيدة الألفية، تفترض استمرارًا كاملاً ووحدة عضوية بين اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم فهي تنكر التاريخ تمامًا. ولكن هذا «التقديس» لليهود يُضمر كرهًا عميقًا لهم ورفضًا شاملاً لهم ولوجودهم، ذلك أن بنية العقيدة الاسترجاعية هي نفسها بنية فكرة الشعب العضوي المنبوذ، أي أن اليهود، شعب مختار، متماسك عضويًا، يرفض الاندماج في الشعوب الأخرى، ولذا لابد من نبذه ونقله إلى مكان آخر! ويمكن أن نلخص هذا الكره وذلك الرفض في العناصر التالية:

١ - يذهب الاسترجاعيون إلى أن اليهود أنكروا المسيح وصلبوه، وأن عملية استرجاعهم إن هي إلا جزء من عملية تصحيح لهذا الخلل التاريخي وجزء من عملية تطهيرهم من آثامهم. فاليهود ليسوا مركز الخلاص بل هم مركز الخلل وسببه. والواقع أنهم إذا كانوا مركز الخلاص

فهذا يعود إلى أنهم بإنكارهم المسيح أصبحوا مركز الخلل وسببه الأساسي وتجسيد للشر في التاريخ. والخلاص لا يمكن أن يتم إلا بتطهير مركز الخطيئة (تنصير اليهود أو إبادتهم). ولعل هذا التركيز على أن اليهود أصل الخطيئة يُفسِّر لأن المسيخ الدجال (الذى سيكون ظهوره هو أقصى درجات الشر) سيكون يهوديًا (من سوريا)، وأنه هو الذى سيقود ملوك الأرض ضد المسيح فى المعركة الأخيرة (هرمجدون).

٢ - تذهب العقائد الألفية والاسترجاعية إلى أن عملية الخلاص النهائى ستصاحبها معارك ومذابح تصل ذروتها فى معركة واحدة أخيرة (هرمجدون)، وهى معارك سيروح ضحيتها ثلثا يهود العالم وستخرب أورشليم (القدس). بل إنه كلما ازداد العنف ازدادت لحظة النهاية اقترابًا، فكأن التعجيل بالنهاية لا يتم هنا من خلال فعل أخلاقى يقوم به المسيحيون وإنما من خلال تقديم قربان مادى جسدى للإله (هولوكوست) يُشوَى بأكمله. بل إن أبعاد هذه المذبحة ستكون أوسع مدىً من المحرقة النازية؛ فكأن العقيدة الاسترجاعية هى عكس العقيدة المسيحية. ففى العقيدة المسيحية، يأتى المسيح ويَنزَف دمه ويُصلَب ويُهزَم، فهو قربان يُقدِّمه الإله فداءً للبشر بأسرهم، قربان لا حاجة بعده إلى قرابين. أما العقيدة الاسترجاعية فتذهب إلى أن المسيح قائد عسكرى يدخل المعارك ويثخن فى الأعداء ثم ينتصر. واليهود هم الذين سينزفون، وهم قربان للرب الذى لا حاجة بعده إلى قرابين، ولذلك فإن ذَبْحهم (أو صَلْبهم) يشير إلى النهاية الألفية السعيدة. كما أن اليهود، حسب الرؤية

المسيحية التقليدية، كانوا دعاة القومية، على حين أن المسيح هو داعية العالمية. أما هنا، فإن العكس هو الصحيح، فاليهود هم مركز خلاص العالم والمسيح هو القائد القومى الذى سيؤسس مملكته فى صهيون.

٣ - انتهت حياة المسيح الأولى بإنكار اليهود له وصلبه، أما حياته الثانية فستنتهى بإعلان انتصاره وبالتدخل فى آخر لحظة لإنقاذ البقية الباقية من اليهود (وإعادتهم إلى أرضهم)، فيخر اليهود أمام المسيح ويعترفون بألوهيته ويقابلونه باعتباره الماشيَح المنتظَر ويتحولون إلى دعاة تبشير بالمسيحية ينشرون الإنجيل فى العالم، أى أن المسيح سينجح فى إقناع اليهود بما فشل فى إقناعهم به أول مرة. وحينما يحدث ذلك، تكون قد اكتملت الدائرة وتمت هداية العالم بأسره.

٤ - العقيدة الاسترجاعية عقيدة تُحوسل اليهود تمامًا، أى تُحوِّلهم إلى وسيلة أو أداة نافعة وأساسية لخلاص المسيحيين ولكنها لا قيمة لها فى حد ذاتها، فهم يستمدون قيمتهم من مقدار أدائهم لوظيفتهم ومقدار تعجيلهم بعملية الخلاص المسيحية.

والعقيدة الألفية الاسترجاعية ترفض التفسير المجازى للعهدين القديم والجديد وأن ما أتى فيهما هى نبوءات حرفية عن المستقبل. فيرى الألفيون، على سبيل المثال، أن العبارات التى وردت عن خراب أورشليم (القدس) تشير إلى حروب عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٤٨. أما الرؤية المسيحية التقليدية، فتذهب إلى أنها تحققت بالفعل عام ٧٠ ميلادية على يد تيتوس.

ويقوم هؤلاء الاسترجاعيون - كما أسلفنا - بحوسلة إسرائيل بشكل حاد. وعلى سبيل المثال، فإن تيرى ريزنهوفر (المليونير الأصولى الأمريكى الذى يقوم بتمويل عملية إعادة بناء الهيكل) يرى أن السلام بين إسرائيل وجيرانها مسألة مستحيلة. وبصفة عامة، فإن الرؤية الاسترجاعية ترى أن هرمجدون نبوءة حتمية لابد أن تتحقق. بل ويرى الاسترجاعيون ضرورة تحريك الأمور باتجاه الحرب لإضرام الصراع والتعجيل بالنهاية (ولذا، فإن موقفهم من مفاوضات السلام أكثر تشددًا من موقف أكثر صقور إسرائيل تشددًا). ولا يختلف الأمر كثيرًا بشأن حدود أرض الميعاد، فهذه الحدود مُعطَى ثابت مقدَّس لا يمكن التفاوض بشأنه. كما أن حدود إسرائيل التى يتخيلها الاسترجاعيون أكثر اتساعًا من حدود إسرائيل الكبرى التى يتخيلها أكثر الصهاينة تطرفًا. فحدودها، حسب الرؤية الاسترجاعية، تضم الأردن وأجزاء من مصر ولبنان ومعظم سوريا (وضمنها دمشق)، أى أن الاسترجاعيين يرون ضرورة سفك الدم اليهودى تحقيقًا لرؤيتهم لنبوءات الكتاب المقدَّس.

لكل هذا نجد أن يهود أمريكا لا يرحبون كثيرًا بهذه الصهيونية التى تدَّعى المسيحية (والتى تطالب بنقلهم إلى إسرائيل ووضعهم فى حالة حرب دائمة). هذا على عكس الدولة الصهيونية التى تجد أن هؤلاء الصهاينة الذين يستخدمون الديباجات المسيحية يكوِّنون لوبى صهيونى قوى يعيش فى صلب المجتمع الأمريكى. إن القضية مركبة ومتداخلة إلى أقصى حد، ومع هذا نجد فى عالمنا العربى من يتحدث عن «الصهيونية

المسيحية» وكأنها بالفعل «مسيحية»، وليست حركة حرفية تُخضع النص المقدس لأهوائها، وتستخدم ديباجات مسيحية لتخبئة المضمون السياسى الاستعمارى العلمانى.

التفسيرات الحرفية

والنص المقدس - فى تصورى - نص مجازى توليدى، لا يمكن فهمه إلا بإدراك طبيعته المجازية، فهو نص يشير إلى الدنيا والآخرة، عالم الشهادة وعالم الغيب، عالم الحواس وما وراء الحواس، فهو نص ثنائى وليس واحدى. أما النص العلمانى فهو نص دقيق ترتبط الدوال فيه بمدلولات حسية أو مادية، فهو نص يشير إلى الدنيا وعالم الحواس والمادة وحسب. فالفرق بين النص المقدس والنص العلمانى هو مثل الفرق بين الشعر (الذى يتعامل مع ظاهرة الإنسان) والمعادلة الجبرية (التى تتعامل مع عالم الأرقام الذى لا يعرف الضحك أو البكاء). فالمعادلة الجبرية قد تتسم بالدقة، ولكنها الدقة التى تستبعد الإنسان. ويجدر بنا أن نُفرِّق بين الحرفية والأصولية (وهذان مصطلحان آخران يتم الخلط بينهما). فالأصولية هى رفض لكثير من الممارسات الدينية وبعض تفسيرات الكتاب المقدس التى تراكمت عبر العصور ودعوة للعودة لأصول الدين ومحاولة تفسيرها تفسيرًا جديدًا وتوليد معان جديدة منها تتلاءم مع الزمان والمكان اللذين يوجد فيهما المفسر «الأصولى». وهو رغم رفضه لبعض التفاسير الموروثة، لا يلجأ إلى التفسير الحرفى، إلا إذا كان النص المقدس يتطلب ذلك. كما أن «الأصولى» لا يجتزئ من النص المقدس مقطعًا ينتزعه من

سياقه ثم يفرض عليه أى معنى حرفى قد يروق له (ويتفق مع مصلحته)، بل يفسر فى إطار ما يتصوره المنظومة الدينية الكلية، وفى إطار النص المقدس فى شموله وكليته وتركيبيته. وهذا ما فعله كثير من المفكرين الإصلاحيين سواء فى المسيحية أم الإسلام أم اليهودية.

أما فى إطار الحرفية، فيقوم المفسر بتفتيت النص المقدس ثم يفرض عليه ما يشاء من معنى، وهو معنى لا يتجاوز ما فى عالم المادة من أحداث مباشرة. وقد أحرزت التفسيرات الحرفية ذيوعًا فى الأوساط الشعبية لأن الشخص العادى (خاصةً فى العصر الحديث بعد عزله عن تراثه وتاريخه) يريد أن يشعر ويدرك بحواسه الخمسة ويفضل الدقة والتحدد على التركيب والإبهام (أى أنه يفضل المعادلة الجبرية على الشعر). ولذا فإنه يريد حين يفتح الكتاب المقدس أن يعرف المقابل المادى لما جاء فيه.

والصهيونية المسيحية، شأنها شأن الصهيونية ذات الديباجات اليهودية، تدور فى إطار الحرفية، وهى أيضًا تلوى عنق النص المقدس وتوظفه لصالحها. فجيرى فالويل، الواعظ المشهور بتأييده لإسرائيل، يذهب إلى أن كتاب حزقيال يشير إلى أرض معادية للماشيَح هى «روش»، وهى أرض بها مدينتان هما «ميشيسن وتوبال»، وتصبح روش «روسيا» وتصبح ميشسن «موسكو» وتوبال «تيبولسك». وستقوم روش بغزو إسرائيل ونهبها (حسب سفر حزقيال)، ولذا فإن فالويل يفسر هذا بأن روسيا ستقوم بغزو إسرائيل للحصول على الغنائم (أطلق فالويل هذه النبوءات

قبل سقوط الاتحاد السوفيتى، فهل يا تُرى لا يزال متمسكًا بـــها، أم أنــه سيُطلق نبوءات من نوع آخر؟. وكلمة «النــهب» يقابلـها فـى الإنجليزيـة كلمة «سبويل spoil»، فإن حذفنا أول حرفين فإنها تصبح «أويل oil»، أى البترول، وهنا تصبح الأمور شـديدة البســاطة ويمكـن تحويـل الكتـاب المقدس إلى دعوة لغزو مصادر البترول والاستيلاء عليها.

الفصل السادس

معاداة اليهود :
تفكيك وتركيب ثلاث حالات

في الفصول السابقة تناولنا بعض الأكاذيب الصهيونية وكيف يقوم الصهاينة بلى عنق الأحداث والأرقام والمفاهيم وتسريب المفاهيم إلينا مثل مفهوم (الشعب اليهودى) و (الصهيونية المسيحية) وأسطورة (ستة المليون). ومن المفاهيم التى تم تسريبها لنا أسطورة أن هذا الشعب اليهودى مشتت عبر تاريخه وأنه دائمًا ضحية اضطهاد الأغيار. وقد نجح الصهاينة فى إشاعة هذا المفهوم الأخير عن طريق تناول أحداث ووقائع وأساطير العداء لليهودية، بعد تجريدها من سياقها التاريخى والاجتماعى والإنسانى بحيث يمكنهم فرض معنى صهيونى عليها. وهذا ما يمكن أن يحدث لأية واقعة تاريخية تتحول إلى مجرد واقعة ليس لها أبعاد تاريخية، وقد تسرب هذا المفهوم الصهيونى إلى وجداننا وأصبح - دون أن نعى - جزءًا من ترسانتنا الإدراكية. وفى هذا الفصل سنتناول ثلاث وقائع عادة ما يشير لها الصهاينة فى كتاباتهم، وسنحاول أن نبين كيف يفرضون الدلالة الصهيونية عليها، أى أننا سنقوم بعملية تفكيكية توضح لنا المفاهيم الصهيونية الكامنة وكيف تنجح هذه النماذج فى أن تعيد صياغة الواقع واختزاله بما يخدم الرؤية والمصالح الصهيونية. ولكننا فى

هذه الدراسة لن نقف عند هذا الحد بل سنقوم بعملية تركيبية وسنحاول أن نطرح تصورًا أكثر عمقا وإنسانية وتفسيرية لنفس الوقائع والأحداث، وسننجز ذلك عن طريق ربط الوقائع التى وردت فى الكتابات الصهيونية بوقائع أخرى استبعدها الصهاينة بحيث تظهر الأنماط الإنسانية العامة. كما أننا سنضع هذه الوقائع فى سياقها التاريخى والإنسانى وبذلك تكسب معناها التاريخ الإنسانى الأعمق الذى يحرص الصهاينة على حجبه.

الوقائع الثلاث

أولى الوقائع هو ما يُسمَّى بـ (تهمة الدم) أى اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبيًا مسيحيًا فى عيد الفصح، سخرية واستهزاء من صلب المسيح. ونظرًا إلى أن عيد الفصح المسيحى واليهودى قريبان، فقد تطوّرت التهمة وأصبح الاعتقاد بأن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم فى طقوسهم الدينية وأعيادهم، ونصوصًا فى عيد الفصح اليهودى الذى أشيع أن خبز الفطير غير المخمّر (الماتزوت) الذى يؤكل فيه يعجن بدماء الضحية.

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر الإغريق والرومان، أى إلى ما قبل العصو رالمسيحية. فقد أتى فى كتابات آبيون الهيلينى (السكندرى) وديمقريطس الرومانى إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية إلى آلهتهم. ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءًا من صورة اليهود الذهنية، ولم توجه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا فى القرون الوسطى المسيحية فى العالم الغربى.

وقد وجهت أول تهمة دم فى القرن الثانى عشر فى إنكلترا فى وقت كان اليهود يمارسون نشاطهم التجارى والمالى، ممّا كان يعنى أن أفرادًا

كثيرين اقترضوا أموالا من المرابى اليـهودى، ولم ينجحـوا فـى تسـديدها. وآلت ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم إلى المرابى. وقد اتــهم اليـهود حينذاك بأنهم ذبحوا طفلاً عمره أربعة أعوام ونصف العام، يدعـى وليـام فى الجمعة الحزينة فى عام ١١٤٤. وقد قال أحـد اليـهود المتنصّريـن:إن هذا هو عيد الفصح الذى تقوم فيه إحدى الجماعات اليهودية فى إحــدى مدن أوروبا بذبح طفل مسيحى (وقد نُصّب وليـام قديسـا فيمـا بعـد). ثـم وُجّهت تهم دم أخرى فى مناطق مختلفة فى إنجلترا، بين العامين ١١٦٨ و ١١٩٢. وقد انتشرت التهمة فى فرنسا، فوجّهت التهمة فى بلـوا، فـى العام ١١٧١. كما وجهت التهمة إلى اليهود خمس عشرة مـرة فـى القـرن الثالث عشـر، ومـن بينـها حالـة هيومـن لنكولـن (١٢٥٥) التـى يذكرهـا تشوسر فى حكايات كانتربرى. وقد استمر توجيه التهمــة حتـى منتصف القـرن العشـرين، ومـن أشـهرها حادثـة دمشـق (١٨٤٠) وقضيـة بيليـس (١٩١٣). وتعد حادثـة دمشـق اسـتثناء فـى أنــها حدثـت فـى العـالم الإسلامى؛ إذ إنها تكاد تكون ظاهرة مقصورة على العالم المسيحى وكانت تهمة الدم تأخذ عادة الشكل التالى: يختفى شخص مسيحى (فــى العـادة طفل) أو يوجد ميتًا، فيتذكر أحد الأشخاص أن هـذا الطفـل شـوهد آخـر مرة بجوار الحى اليهودى أو أن هناك عيدًا يــهوديا مـا (تتطلـب شـعائره دما نصرانيا) فيوجّه إلى اليهود تهمة قتله ويتم القبض على بعـض أعضـاء الجماعة اليهودية، ويتم تعذيبهم ثم شنق بعضهم.

أمّا الواقعة الثانية، فهي حادثة دريفوس الشهيرة، وبطلها هو الفريد دريفوس (١٨٥٦ – ١٩٣٥) الذى كان من كبار الضباط الفرنسيين وكان اليهودى الوحيد في هيئة أركان الجيش الفرنسي، وقد ولد دريفوس في الالزاس لامرأة يهودية ثرية مندمجة في محيطها الفرنسي. ونظرا إلى أن اسمه كان فلهاوزن، وهو اسم ألماني النكهة، فقد غيره إلى اسمه الفرنسي الذى اشتهر به. وقد اتهم دريفوس عام١٨٩٤ بأنه أعطى وثائق سرية عسكرية للملحق العسكرى الألماني في باريس، وقد قامت السلطات العسكرية بمحاكمته. وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث. وكانت تعبىء الرأى العام ضد دريفوس، مما خلق جوًا غير ملائم لضمان حياد المحاكمة. وفي نهاية الأمر، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة، وجرد من رتبته علنًا أمام الجماهير. ونفى إلى (جزيرة الشيطان) (ديفلز ايلاند) التى تقع على الساحل الأفريقي. وكانت مستعمرة من قبل فرنسا. وقد رحّبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم.

أما الواقعة الثالثة، فهي حادثة ليوفرانك، وهو يهودى أمريكي ولد في تكساس ونشأ في بروكلين. وكان يعمل مديرًا لمصنع أقلام في اتلانتا جورجيا، حيث قبض عليهم بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ١٣ عامًا، تدعى مارى فيغان، بعد محاولة اغتصابها. وقد حوكم فرانك وصدر حكم بإعدامه ويُقال: إن كونه يهوديا كان عنصرًا هامًا أثر في محاكمته وفي الأحداث التى تلتها. وحينما خفّف حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واختطفت فرانك وشنقته

فى المدينة التى ولدت ودفنت فيها ضحيّته المفترضة، وهو ما يُسمَّى فى اللهجة الإنجليزية - الأمريكية Lynching.

«تهمة الدم» فى سياقها التاريخى

وترد الوقائع الثلاث السابقة فى الكتابات الصهيونية بهذا التجريد. والنتائج التى يستخلصها القارىء، أو التى تُستخلص له، هى أن اليهود لا ينتمون إلى مجتمعاتهم؛ إذ أن مجتمعات الأغيار تنبذهم وتضطهدهم، لا لذنب اقترفوه سوى لأنهم (يهود). والفارق الوحيد هنا بين الصهاينة وأعداء اليهود أن الفريق الثانى يقول: إن كل المجتمعات تنبذ اليهود وتضطهدهم لأنهم يستحقون ذلك. ولكن الفريقين يتفقان على حتمية النبذ والاضطهاد، بسبب طبيعة اليهود الخاصة، وبالتالى حتمية خروجهم.

وطبيعة اليهود الخاصة هذه هى التى تصبح (القومية اليهودية) فى الخطاب الصهيونى، أما الاضطهاد (والنبذ) فيصبحان الحركة الطاردة من المجتمعات الأصيلة، و(الخروج) يصبح الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين. وبالتالى، فنحن من منظور أخلاقى ومعرفى وعملى، يجب أن نقف ضد معاداة اليهود. ومن النادر أن نجد مثل هذا التوافق شبه الكامل بين المستويات الثلاثة المتناقضة فى أية قضية من القضايا؛ إذ عادة ما يوجد تناقض بين المنظورين الأخلاقى والعملى، كما أن المنظورين المعرفى والأخلاقى قد لا يتفقان بالضرورة.

ولنبدأ بتهمة الدم، ولنحاول أن نضعها فى سياق تاريخى إنسانى عام. ظهرت تهمة الدم بعد أن تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية فى

العالم الغربى إلى جماعات وظيفية وسيطة تشتغل بالتجـارة والربـا. وكـان يتـم تشـبيههم بالأسـفنجة التـى تمتـص نقـود كـل الطبقـات، والطبقـات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يعتصرها الإمبراطور لحسابه بعد ذلـك، (وهو أمر لم تكن تدركه الطبقات الشعبية). ومـن هنـا الإشـارة إلى اليـهود كأعضاء جماعة وظيفية وسيطة (لا إلى اليهود كيهود) على أنـهم مصـاصو دماء. وليس من الصعب على الوجدان الشعبى تحويل المجاز إلى حقيقة.

وتوجيه تهمة الدم كان يعنى فى واقع الأمـر شـنق عـدة يـهود، مـن ضمنهن عدد كبير من المرابين، فقد كانت هذه هى إحـدى أهـم الوظـائف التى اضطلع بها اليهود فى التشكيل الحضارى الغربى. وكان هـذا يعنـى فى كثير من الأحيان سقوط الديون؛ أى أن توجيه تهمة الدم يشـبه، مـن بعض الوجوه، التخطيط لسرقة مصرف من المصارف؛ وشنق اليـهود كـان بمثابة النجاح فى هذه العملية، وهى عملية تشبه، أيضًا، عمليـات روبـن هود، الذى كان يسرق من الأثرياء ليعطى الفقـراء. ولكـن الخزانـة الملكيـة كانت تستفيد أحيانًا من تهمة الـدم، حينمـا كـانت تـرث ديـون المرابـى الذى يُشنق أو يطرد. إن النخبـة الحاكمـة كـانت تنتـهز الفرصـة لابـتزاز أعضاء الجماعة اليهودية لحمايتهم.

ويبدو أن تهمة الدم صورة إدراكية نمطية تتكرر فى الوجدان الشعبى؛ وهى عادة اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم. وقـد اتُهم الغجر بأنهم يخطفون الأطفال ويمصون دمهم؛ كمـا وجـهت التهمـة عينـها إلى المسـيحيين الأول؛ وكذلـك إلى الغنوصيـين، وإلى إحـدى الفـرق

الدينية الإيطالية في عام ١٤٦٦. وقد اتهم المبشّرون المسيحيون في الصين، في عام ١٨٧٠، بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين، ليصنعوا منهم دواء سحريًا. واتهم الأجانب في مدغشقر، في عام ١٨٩١، بابتلاع قلوب البشر. أما الرهبان الدومينكان، فقد اتهمهم أعداؤهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل يهودي في بعض طقوسهم السرية! أي أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود. وإذا كان المرابون الآخرون في العصور الوسطى الغربية، مثل اللومبارد والكوهارسين (وهم مسيحيون) لم توجه إليهم تهمة الدم - حسب علمنا - فقد وجّهت إليهم تهم أخرى، لا تقل عنها سوءا؛ كما أنهم كانوا عرضة للطرد، وللمصادرة، والشنق.

وقد ساعد تكرار مناظر الدم والقتل في العهد القديم على إلصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين. كما أن طقوس اليهود الدينية، خاصة طقوس عيد الفصح، كانت تثير الريبة في نفوس أعضاء الأغلبية، الأمر الذي كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها (هذا مع العلم بأن العهد القديم يمنع شرب الدم، أو أكل اللحم قبل تصفية الدم منه).

ولم يكن اليهود يقفون في مقابل الأغيار كما يدّعي الصهاينة بذلك. فالنخبة الحاكمة (الكنيسة والامبراطورية والملوك) كانت تدافع عن أعضاء الجماعة ضد التهم التي كانت توجّهها إليهم عامة الشعب. فبين البابا انوسنت الرابع، في مرسوم أصدره عام ١٢٤٥، أن التهمة باطلة، وحرّم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود، ودافع البابا غريغوري العاشر، في

مرسوم أصدره عام ١٢٧٤، عن اليهود. كما فعل بابوات آخرون الشيء عينه. وفي عام ١٧٥٨ أصدر الكاردينال لورنزو جانجانلي (البابا كليمنت الرابع عشر، فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم. وقد أصدر التحريم عينه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (حكم من ١١٩٤ إلى ١٢٥٠) وامبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج في عام ١٢٧٥. وقد أصدرت الحكومة في بولندا، في العصور الوسطى، قرارًا بأن من يوجّه التهمة إلى اليهود دون أن يثبتها ببراهين قاطعة يحكم عليه بالإعدام. وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها؛ ولكنهم، مع هذا، فشلوا في مسعاهم، واستمرت تهمة الدم مرتبطة، ارتباطا وثيقًا بصورة اليهودي، حتى عهد قريب.

أما تهمة الدم في حادثة دمشق، فقد كانت مرتبطة بالصراع بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي الذين كانا يتنافسان على مدّ نفوذهما عن طريق «حماية أعضاء الأقليات الدينية». فكان الفرنسيون «يحمون» الكاثوليك والمارونيين (الذين وجّهوا تهمة الدم) وكان البريطانيون، نظرًا إلى عدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد كبيرة في العالم العربي (يحمون) اليهود، خاصة وأن روسيا، وهي بلدهم الأصلي، لم تكن مهتمة بهم كثيرًا بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس، ولأن روسيا لم يكن لها أطماع في الشرق الأوسط، إذ أن مشروعها الاستعماري كان موجهًا إلى مناطق أخرى. وقد أصدر السلطان العثماني فرمانًا يجرّم فيه تهمة الدم.

المسألة إذا أكثر تركيبا مما يصورها الصهاينة، فتهمة الدم ظاهرة شعبية، ليست مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية. كما أن العالم لم يكن ينقسم إلى يهود وأغيار، فالسلطات الحاكمة كانت تقف في صف اليهود، إما لأسباب دينية (كما هو الحال مع الكنيسة) أو لأسباب اقتصادية (كما هو الحال مع الأباطرة) أو لخليط منها (كما هو الحال مع الخليفة العثماني).

دريفوس والصراع بين الكنيسة والقوى العلمانية

أما الواقعة الثانية، فهي واقعة الفرد دريفوس، التي وُصفت بأنها تركت أثرًا عميقًا في هرتزل، إلى درجة أنه اكتشف عبث محاولة الاندماج، فتبنى بدلاً من ذلك الحل الصهيوني. وهذه في حدا ذاتها عملية تبسيط فجّة للعوامل التي أدت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية. ولكن من الحقائق التي لا توردها المراجع الصهيونية أن هرتزل نفسه كان مقتنعا في بادىء الأمر بأن دريفوس كان مذنبًا وخائنا، ولا أعرف ما الذى جعله يغير رأيه فيما بعد. ولكن ليس هذا هو موضوع الحديث، ولذلك فسوف نحاول أن نضع واقعة دريفوس في إطارها التاريخي والاجتماعي والإنساني.

ابتداءً، كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية، لأسباب وجيهة فالقوات الفرنسية كانت تجنِّد كثيرًا من يهود ألمانيا ويهود الالزاس واللورين للعمل جواسيس لحسابها. ولذا ساد الاعتقاد بأنه لابدّ وأن ألمانيا ذاتها كانت تفعل الشيء نفسه (وهو أمر متوقع). ويجب أن نتذكر أن هذا

جـزء مـن الإدراك الأوروبـي لليـهود، وهـو إدراك كـانت تدعمــه بعــض الممارسات التاريخية. ففي القـرن السـابع عشـر، لعـب أفـراد الجماعـات اليهودية في أوروبا دورًا أسـاسيًا في عمليـة التجسـس بـين الـدول؛ وقـد حاول اوليفر كروموبل أن يخطب ود اليهود ويوطنهم في إنكلـترا، حتـى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له.

ويلاحظ أن تلك الفترة شهدت كسادًا اقتصاديًا في أوروبا، الأمر الـذي أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا، فجاء مهاجرون مـن إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية. فكان عدد الإيطاليين ١١٢ ألفا فـي عام ١٨٧٢، ازداد إلى ٣٠٠ ألف في عام ١٨٩٠. وقد جاء معهم قرويـون، مـن القرى الفرنسية، يتحدثـون لهجاتــهم المحليــة، مثـل الـبريتون والأفيرنيان Auvergnat، كما هـاجرت أعـداد كبـيرة مـن يـهود الألـزاس واللورين الذين لم يكونوا قد اصبطغوا بعـد بالصبغـة الفرنسـية. ووصلـت أعداد كبيرة من يهود شرق أوروبا، الذين يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية). وقد أدى كل هذا إلى زيادة عدد الأجـانب. كمـا أن تزايـد يـهود شـرق أوروبـا ويـهود الالـزاس واللوريـن علـى حساب العنصر اليــهودي الفرنسي المحلي أدى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب. ومن المعروف أنه في فترات الكساد الاقتصادي، تتعرض العناصر الأجنبية للهجوم من قبل السكان المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنها سبب الأزمة، إذ إن العـامل الأجنبـي يرضـي بـأجر أقـل ومسـتوى معيشي أكثر انخفاضًا. علاوة على هذا، كان الجو العام في فرنسـا آنـذاك

متوترًا، خاصةً بالنسبة إلى أفراد الجماعة اليهودية، بعد هزيمة الجيش الفرنسى على يد الألمان فى عام ١٨٧٠، إذ كانت العناصر الليبرالية (التى كانت تضم نسبة عالية من اليهود) تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا. كما أن المد العلمانى كان آخذا فى التزايد، وفى الإصرار على فصل الدين عن الدولة بشكل كامل. ويجب أن نتذكر أن الثورة الصناعية قد اقتلعت الكثيرين من جذورهم، وأدت إلى إفقارهم، وقذفت بهم إلى المدن الكبرى مثل باريس. وكان المقتلعون هؤلاء يشعرون بعدم الأمن تجاه المجتمع الجديد، بعلمانيته وثوريته وقيمه التجارية والذى كان اليهود يتواجدون فى مركزه. إضافة إلى ذلك، كان هناك عدد كبير من اليهود بين قادة كومونة باريس فى عام ١٨٧١. وقد أدى هذا كله إلى الربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والفوضوية فى المجتمع. وعلى الرغم من هذا ارتبط اليهود (عبر تاريخ أوروبا، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث) بالمصالح المالية الكبيرة بالمصارف وبالشبكات المالية والتجارية، وهى صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد فى عالم التجارة والمال.

وهكذا أصبح اليهودى رمزا متبلورًا لكثير من العناصر المتناقضة ومحط شك الجماهير وكرهها، فهو الأجنبى البغيض، وهو الثورى العلمانى التقدمى الذى يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر، ولا يكترث بأية قيمة سوى الربح، ولا يرتبط بأية أرض سوى السوق. وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره الزاسيًا وأجنبيًا وعضوًا فى طبقة المموّلين الأثرياء.

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التى كانت تستخدم خليطًا جذابًا ومريحًا من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرقية، وتطرح صورة لمجتمع مبنىّ على التضامن المسيحى، والتكافل الاجتماعى، والتعاون الاقتصادى، يقف على طرف النقيض من المجتمع الصناعي الجديد، المبنى على التنافس والتقاتل، والذى يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح وللأقوى وحسب. وقد انضمت غالبية أفراد الجماعة اليهودية المتمركزين فى العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التى أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة. فاليهودى كان بلا شك رمزًا هامًا للقوى الجديدة؛ ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة؛ إذ أنه كان جزءا من كل، والكل هو القوى الاجتماعية المتصارعة فى المجتمع الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر، والتى كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها. وقد حوّلت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة صراع فيما بينها.

ففى عام ١٨٩٦، اكتشف جورج بيكار، رئيس مخابرات الجيش الفرنسى والبطل الحقيقى لواقعة دريفوس، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه، وتشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو الميجور استرهازى، الذى كان قد لعب دورًا هامًا فى سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس. وقد حاول بيكار إقناع المسئولين بإعادة المحاكمة، ولكنه أمر بالتزام الصمت، ونُقل إلى تونس بسبب ذلك.

وقد شُنت حملة أعلامية مكثفة، قادها المفكّر الفرنسي اليهودي، برنارد لازار، للمطالبة بإعادة النظر في القضية، وكتب مقالات عدّة دافع فيها بحماس عن دريفوس، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية، لاقتناعه ببراءة دريفوس. وتحت إلحاح الموقف المتفجر وإصرار بيكار قُبض على الميجور استرهازي، وحوكم ذرًا للرماد في العيون، ولكنه بُرِّئ بسرعة، لعدم كفاية الأدلة. فكتب الروائي الفرنسي إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إني أتهم» هاجم فيها المحاكمتين؛ وكانت النتيجة أن اتهم زولا بالقذف العلني، وحكم عليه بالسجن، فهرب إلى إنجلترا. وفجأة برزت أحداث جديدة غيّرت مجرى القضية، فقد انتحر شاهد الإثبات الأول في القضية، الكولونيل هيوبرت جوزيف هنرى، في أثناء استجوابه، وذلك بعد أن اعترف بتزويره للوثائق التي أدت إلى إدانة دريفوس. وعندما علم إسترهازي بحادث الانتحار، اعترف بجريمته، وفرّ إلى إنجلترا. وفي صيف عام ١٨٩٩، أمرت محكمة النقض بإعادة محاكمة دريفوس في ضوء الأحداث التي استجدت، ولكن تحت ضغط بعض الشخصيات ذات النفوذ في الجيش أعلن، مرة أخرى، أنه مذنب. وفي هذه المرة حُكم عليه - مع مراعاة الظروف المخففة - بالحبس عشر سنوات كان قد قضى خمسًا منها في المنفى. وبعد أيام عدة، أمر الرئيس الفرنسي أميل لوبيه بالعفو عنه وقد حثّه كثير من أصدقائه والمدافعين على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة، لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص، غير أن دريفوس

نفسه لم يكن مدركًا للأبعاد السياسية التي اتخذتها هـذه القضيـة، فكـان كل ما يتمناه وتتمناه عائلته الثرية المندمجة، هو الإفراج عنه، سـواء عـن طريق العفو أو التبرئة؛ ولذا قبل قرار العفو. أمـا بيكـار فقـد أصبـح بطـلاً قوميا، ورقّاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريغادير جنرال، وعُيِّن فيما بعد وزيرًا للحرب.

وقد أعيدت محاكمة دريفوس، مرة أخرى، في عام ١٩٠٣، بضغط من القوى العلمانية والثورية، وصدر الحكـم بتبرئتـه، وأعيـدت إليـه حقوقـه السابقة؛ وعيِّن في هيئة الأركان، مـرة أخـرى، بوظيفـة مـأمورًا، وتلقـى وسام شرف؛ ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة. وقد عُين فـى أثنـاء لحـرب العالمية الأولى كولونيلاً وقـائدًا لأحـد قطاعـات بـاريس. وقـد عمقت هـذه القضية الخلافات الموجودة بين مؤيدى، وخصوم، النظام الجمـهورى فـى فرنسا، وأدّت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية، وكانت وراء القـانون الـذى صدر فى عام ١٩٠٥، بفصل الدين عن الدولة.

إن قضية دريفوس لم تكـن قضيـة بسيطة، كمـا أنـها لم تكن قضيـة يهودية فدريفوس ذاته كـان يـهوديًا ولكنـه لم يكـن بطـل القصـة، وإنمـا موضوعها وساحتها. أما بطل القصة الحقيقى فلم يكـن يـهوديًا، كمـا أن القوى المتصارعة (العلمانيين ضـد الدينـين) لم يكـن اليـهود سـوى عنصـر واحد مـن عناصرهـا الكثـيرة، فالقضيـة كـانت قضيـة خاصـة بـالمجتمع الفرنسي فى إحدى مراحل تحوله الهامة بعد تصـاعد معـدلات العلمانيـة فيه. ولا يمكن فهم القضية بالعودة إلى التـاريخ اليـهودى أو حتـى تـاريخ

الجماعة اليهودية فى فرنسا وإنما بالعودة إلى تاريخ فرنسا، وتاريخ أوربا ككل.

واقعة ليوفرانك

أما الواقعة الثالثة، فهى واقعة ليوفرانك. وسنكتشف مرة أخرى أن يهودية ليوفرانك لم تكن هى العنصر الأساسى الذى أدى إلى اضطهاده وقتله، فأهل الجنوب لم ينظروا إليه باعتباره يهوديًا، وإنما باعتباره رمزًا متبلورًا لعناصر تاريخية واجتماعية وثقافية عدة، ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته، شأنه في هذا شأن دريفوس. وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع مسرح الواقعة كان يخوض هو الآخر ثورة صناعية حقيقية متأخرة، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئة وأمراض اجتماعية عاش فى ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحليين، أو المهاجرين المقتلعين من جذورهم الزراعية، سواء فى أوروبا أم فى الجنوب.

ومن مظاهر الثورة الصناعية تركّز السكان فى المدن. وقد تضاعف عدد سكان مدينة أتلانتا، فى ولاية جورجيا، بين عامى ١٩٠٠ – ١٩١٣، إذ زاد من ٨٩٨٧ نسمة إلى ١٧٣,٧١٣ نسمة، وهو يعد أعلى معدّل ارتفاع لأية مدينة أميريكية فى الفترة عينها (باستثناء برمنجهام فى ولاية ألباما). وكان نمو المدينة عشوائيًا فلم توجد المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة، مثل أماكن الترويح، أو أماكن السكن، أو ما يكفى من المستشفيات العامة. وكانت أتلانتا تعانى من أزمة مساكن، فقد كان يوجد

۳۰,۳۰۸ مسكن لـ ۳۵,۸۱۳ أسرة، ونصف المساكن لا تصله المياه، وكان حوالى ٥٠ ألف شخص يعيشون فى منازل لا يوجد فيها نظام للصرف. وكانت نسبة تلوّث الجو عالية للغاية، ولهذا انتشرت الأمراض، مثل التيفوئيد وغيره، وارتفعت معدّلات الوفاة. ويقال إن ٩٠ بالمئة من المساجين كانوا يعانون من مرض الزهرى. وقد زاد فقر سكان أتلانتا بشكل رهيب (كان الطفل يتقاضى ٢٢ سنتًا نظير عمله لمدة أسبوع، وكانت مارى فيغان قد ذهبت لتتقاضى أجرها عن أسبوع كامل وهو دولارا وعشرين سنتًا).

ولم يكن الجو موبوءًا من الناحية المادية فحسب، وإنما من الناحية الأخلاقية أيضًا (وهذا أمر متوقَع فى مثل هذا المجتمع). وقد انتشرت كل أنواع الجرائم، من السرقة والقتل والدعارة والسكر. وكانت نسبة الجريمة فى أتلانتا أعلى النسب فى الولايات المتحدة الأميريكية، وتعادل نسبتها فى شيكاغو عاصمة الجريمة فى العالم. وقد قبضت الشرطة، فى عام ۱۹۰۷، على ۱۷ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ۱۰۲,۷۰۰. ومع هذا، كان جهاز الشرطة هزيلاً للغاية، إذ أن مجموع عدد العاملين فى قوة الشرطة كان لا يزيد على ۲۰۰ شرطى. وكان يوجد فى هذه المدينة الواسعة مركز شرطة واحد، ولذا كان كثير من المجرمين يفِرون من قبضة القانون، وقيل: إنه من كل ست جرائم قتل كانت تضبط جريمة واحدة. وفى عامى ۱۹۱۲/۱۹۱۳ بالذات، كان هناك ۱۲ جريمة قتل لم يتم الاهتداء إلى مرتكبيها.

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا. ويجب التنبيه إلى أن هذه الثورة كانت جزءا من عملية غزو واسعة. فالجنوب الأمريكي مسرح الواقعة كان لا يزال يشعر بمذاق الهزيمة في الحرب الأهلية (١٨٦١ - ١٨٦٥) حين هزم الشمال الصناعي الجنوب الزراعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات المختلفة. وقد فقد ما يقرب من ٦٠٠ ألف شخص حياتهم إبّان هذه الحرب. وبعد انتصار الشمال، ثمّ فتح الولايات الجنوبية لرأس مال الشمال، وللنخبة الشمالية التي أسست الصناعات وغزت السوق. ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقة شبه كولونيالية، وأن ما سمّاه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة الأمريكية هو، في واقع الأمر، غزو شمالي للجنوب وهيمنة عليه. وهو غزو لمجتمع زراعي، كانت تسود فيه علاقات شبه إقطاعية، توجد على قمته أرستقراطية تعتز بمكانتها الرفيعة، وبقيَم الجنوب، وبالالتزام الإقطاعي. وكان مجتمع الجنوب مجتمعًا انجلوسا كسونيًا بروتستانتيًا متجانسًا، لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين، كما حدث في بقية الولايات المتحدة الأميركية، خاصة على الساحل الشرقي. وكانت مؤسسة الأسرة قوية للغاية في مجتمع الجنوب، وتتّسم بقدر كبير من التماسك. وكانت المرأة هي رمز هذا التماسك الأسري، ولذا كانت محط تقديس المجتمع. وأعضاء مثل هذا المجتمع الزراعي الأرستقراطي عادة ما ينظرون بكثير من الاحتقار، بل والبغض، إلى الاقتصاد النقدي، المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب.

وقد كانت شكوك أهل الجنـوب فـي محلـها، إذ أنـه بعـد «توحيـد» الشمال مع الجنوب فُتـح الجنـوب للصناعـات الشـمالية، التـى هـاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضى قليلة التكـاليف والأسـواق البكـر. وهـى صناعـات لم تخـدم كثـيرًا تقـاليد المجتمـع، وسـاهمت فـى تفكيـك نسيجه المجتمعـى، وفـى تحطيـم بنيـة الأسـرة. فكـان الأطفـال والنسـاء يعملون في المصانع لساعات طويلة. وقد أدّى دخول الصناعات إلى تزايـد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبعها مـن تفكـك اجتمـاعى، خاصـةً وأن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطّور عضـوى بطـىء، وإنمـا فرضـت عليه فرضًا من مجتمع اليانكى الشمالى.

كان ليوفرانك رمزًا لهذه القوة الغازية، فهو رجل صناعة ومدير مصنع جاء من الشمال ليستقر فـى الجنـوب، وهـو مجتمـع زراعـى ينظـر بعـين الشك إلى الصناعة. وكان يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالـة رخيصـة في مجتمع كان يقّدس الأسرة حتى عهد قريب. وكـانت تتـم الإشـارة إلى مارى فيغان على أنها «عاملة المصنع الصغيرة»، أى أنها تحوّلت إلى رمز الطفولة البريئة التى استغلّها المستثمرون مـن الشـمال. وهـو كـان خريجـًا جامعيًا وعضوًا فى النخبة العلمانية المهيمنة، التى لا تكترث كثيرًا بالقيم التقليدية فى وسـط بيئـة جنوبيـة عماليـة مقتلعـة مـن بيئتـها الزراعيـة، لا تزال تؤمن بالقيّم التقليدية والمسيحية (البروتستانتية)، تحلم بالمجتمع المتماسك الذى دُمِّر إبّان الحرب الأهلية. ولم تكـن يهوديـة فرانـك سـوى بلورة لكل هذه العناصر السابقة؛ إذ أن المعركة الحقيقة كانت بين الشمال

الصناعى الغازى والجنوب الزراعى الـذى تمّ غـزوه؛ بـين ضحايـا التقـدّم والصناعة، من جهة، وممثلي هذا المجتمع الجديد الرهيـب، مـن جهـة أخرى.

ولعلـه يكـون مـن المفيـد أن نتوقـف قليـلا، عنـد نقطـة انتمـاء فرانـك اليهودى. فقد كان يشغل منصب رئيس فرع جماعة بناى بريت اليهودية في المدينة. لابدّ من أن نعرف كذلك، على وجه الدقّة، موقـف الجنـوب الأميركي من اليهود. وقد حدّد الجنوب الأمريكـى التضـامن علـى أسـاس عرقى: أبيض فى مقابل أسـود، علـى عكـس الشـمال الـذى عرّفـه علـى أساس عرقى، أو اثنى دينى: بروتستانى أبيض انجلو – ساكسونى فـى مقابل كاثوليكى أبيض من أصل إيطالى أو أيرلندى، أو كاثوليكى اسبانى، أو كاثوليكى أو بروتستانتى أسود؛ وكل هذا فـى مقـابل يـهودى بطبيعـة الحال (وبالتالى يكون اليهودى الأسود فى أسفل الدرك). ومن الواضح، أن التعريف الجنوبى لم يستبعد اليهود، وإنما صنفّهم على أنهم بيض، تمامًا كما يحدث فى جنوب أفريقيا. وقد سمح لهم هذا التصنيف بدرجة عالية من الاندماج والحراك الاجتماعى؛ وأصبحوا جزءًا عضويًا مـن المجتمـع؛ وكانوا أعضاء فى النخبة الحاكمة، وامتلكوا العبيد وتاجروا بهم. فلم يكن هناك مقولة مستقلة لليهودى فى الوجدان الجنوبى التقليدى.

وقد أشرنا آنفًا إلى أن فرانك كان رمزًا للقوة الغازيـة الشـمالية. ويمكـن أن نضيف، هنا، أنه مع التحولاّت التى أدخلـت إلى الجنـوب اكتسـبت كلمة «يهودى» مدلولاً جديدًا. فأعضاء الجماعة اليهودية فى جورجيـا لم

يكونوا يهود الجنوب التقليديين، وإنما كانوا وافدين، كانوا عنصرًا غريبًا جديدًا، له طابع اثنى وظيفى مميّز، ويهود أتلانتا، فى عام ١٩١٠،كانوا يشكّلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب؛ إذ بلـغ عددهـم ١٣٤٢ أى ٢٥ بالمئة من مجموع كل الأجانب. وعلى الرغم من أن نسبتهم لم تتجاوز واحدًا بالمئة من عدد السكان، إلاّ أنـهم كـانوا يشكّلون جماعـة وظيفيـة حقّقت بروزًا مشينًا. فاليهود المـهاجرون كـانوا يمتلكـون معظـم الحانـات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة (وهـذا جـزء مـن ميراثـهم الاقتصـادى الأوروبى). وكان زبائنهم، أساسًا، من الزنوج. وقيل: أن بيـوت الدعـارة التى امتلكها اليهود، كانت تزيّنها صور نساء بيض تثير شـهوة الزنـوج، الذين كانوا يحتسـون الخمـر فـى الحانـات اليهوديـة «وينطلقـون بعدهـا كالوحوش»، وهذه صورة إدراكية عنصريـة؛ ولكنـها، مـع هـذا، ربطـت الجرائم الجنسية فى ذهن سكان أتلانتا باليـهود. وكـان فرانـك، نفسـه، مشهورًا بمغازلة العاملات وملاحقتهن. وقيـل إن مـارى فيغـان، نفسـها، شـكت إلى صديقاتـها مـن محـاولات فرانـك الإباحيـة. وقـد تكـون هـذه الاتهامات باطلة تمامًا؛ قد يكـون سـلوك فرانـك «الإبـاحى» ليـس سـوى سـلوك أى شخص من مجتمع حضرى مفتوح يتصـرّف بحريـة زائـدة فـى مجتمع مغلق أو قيمه مغلقة، فتفسرّ كل حركاته بشـكل مبـالغ فيـه، قـد يكون هذا هو الوضع، ولكن المهمّ إدراك الناس له، ولسلوكه، خاصـة وأن اشتغال اليهود بالمهن المشينة عزّز هذا الإدراك.

إلى جانب كل هذه الخلفية الاجتماعية، والتاريخية، والثقافيـة، ثمّـة جانب إحصائى هـامّ، فالدراسات الصهيونيـة لا تكفّ عن الإشارة إلى قضية فرانك، وإلى الظلم الـذى حـاق بـه، نتيجـة اختطافه من السجن وشنقه، بعد أن خفّف الحاكم الحكم عليه. ولكن هذه الدراسـات لا تذكـر هذه الحقائق:

١ – أن احترام القانون لم يكن سمة سائدة فى المجتمع. فعلـى سـبيل المثال، لجأت الشرطة، ذات مرة، إلى القبض على كل الذكـور القـادرين، لأن أتلانتا كانت تعانى من نقص فى العمالة. كما أنه من المعروف أنه فى عام ١٩٠٩، اتُـهمت الشـرطة بضـرب أحـد الزنـوج ضربًـا أفضـى بـه إلى الموت، وأنهم قاموا بتقييد امرأة بيضاء إلى الحائط حتى زهقت روحها.

٢ – اندلعت فى عام ١٩٠٦، اضطرابات بين السـكان البيـض، الذيـن هاجموا حى السود لعدّة أيام واشتبكوا معهم، فقتلوا عشرة زنوج وجرحـوا ستين (بينا قُتل من بينهم رجـلان وجـرح عشـرة). واضطـرت المدينـة إلى استدعاء الحرس الوطنى، وقيـل إن الاضطرابـات اندلعـت نتيجـة تقـارير مثيرة نشرت فى الصحف عن هجوم السود على النساء البيضاوات.

٣ – كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيـدى العاملـة، وبالتـالى إلى مزيد من المهاجرين، ولكن كلّما زاد عـدد الـمهاجرين كـانت تـزداد نسـبة غضب السكان المحليين المقتلعين. ففى عام ١٨٩١، تمّ اختطاف، وشنق، أحد عشر مهاجرًا إيطاليًا، وفـى عـام ١٨٩٩، اختطـف خمسـة آخـرون. وفى عام ١٩٠٠، اختفى ثلاثة آخرون تحت ظروف غامضة.

٤ - شهدت الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ ما مجموعة ٢٥٠٠ حالة «لينشنج» أخرى (اختطاف مساجين وشنقهم ضد سلطة القانون)، وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود، كما تمَّ اختطاف قلّة من أعضاء الأقليات الأخرى. ولكن لم يكن هناك سوى حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودى، وشُنق، وهى حالة ليوفرانك. وهكذا تحوّل الاستثناء إلى قاعدة، وتحوّل الخاص إلى عام، وتحولت الواقعة العابرة إلى رمز عالمى مركزى! وقد صدر عفو عن فرانك في عام ١٩٨٦ وبُرىء اسمه.

بين حشد الحقائق ومعرفة الحقيقة

فيما سبق، لم نحاول أن نفرض معنى محددًا على الحقائق بدلاً من المعنى الصهيونى العنصرى اللاإنسانى، وإنما وضعناها فى سياقها التاريخى الاجتماعى الإنسانى العريض، فظهر معناها الإنسانى الكامن لوحده، وتَكشَّف لنا أن الضحايا اليهود لم يسقطوا بسبب يهوديتهم المطلقة ولسبب غير مفهوم أو ميتافيزيقى، وإنما سقطوا نتيجة لمركّب من الأسباب الاجتماعية التاريخية المفهومة، وأن يهوديتهم لم تكن سوى عنصر واحد ضمن عناصر كثيرة، بل لم تكن يهوديتهم ذاتها سوى بلورة لعناصر أكثر عمقًا: إذ لا يظهر اليهودى كيهودى، وإنما كمرابٍ (تهمة الدم) أو كألزاسى أو عميل ألمانى أو أجنبى (دريفوس) أوشمالى علمانى جامعى صاحب مصنع (ليوفرانك)؛ وأن الهجوم الذى كان يتمّ على اليهود ليس مقصورًا عليهم، وإنما هو هجوم موجّه ضد كل القوى المماثلة فى المجتمع.

وقد ذكرنا كل هذا لا من قبيل تبرير الهجوم على اليهود، أو غيرهم من أعضاء الأقليات؛ فهذا مما لا يسمح به الإسلام (على عكس ما قد يتصوره البعض، وعلى عكس ما يشاع) ولا يمكن تبريره، وإنما ذكرناه من قبيل محاولة فهم الوقائع واستخلاص معناها الحقيقي. ويلاحظ أننا بهذه الطريقة نسقط عن اليهودى عجائبيته وإعجازه وفرادته (التى يصرّ عليها الصهاينة والمعادون لليهود)، ونستعيد له إنسانيته. وإذا ما أدركنا المغزى الإنسانى الكامن فى واقعة ما، يكون الحزن من أجل الضحية حزنًا إنسانيًا لا يُوظف فى خدمة عقيدة عنصرية استيطانية؛ إذ إنه إذا سقط اليهودى (شأنه شأن أعضاء الأقليات والجماعات الأخرى) ضحيّة العنف فى مجتمعه، يصبح الحل هو أن ينضمّ إلى الجماعات التى تدافع عن حقوق الإنسان (من أعضاء الأقليات الأخرى وأعضاء الأغلبية)، وأن يناضل من أجل حقوقه داخل مجتمعه. وتصبح القضية هى كيف ندافع عن حقوق اليهود السياسية والمدنية، والدينية (وحقوق غيرهم من الأقليات) داخل وطنهم، لا أن نطالب بتهجيرهم (أو خروجهم) كما يفعل العنصريون من الصهاينة وأعداء اليهود.

وثمّة قضية أخرى تتجاوز اليهود والصهاينة والمعادين لليهود؛ إذ إنها قضية معرفية ذات طابع نظرى، وهى علاقة الحقيقة بالحقائق. فنحن كثيرًا ما نتصوّر أن الحقائق هى الحقيقة. ولذا، فنحن نحاول أن نكون «موضوعيين فى رصد الحقائق» ولكن الحقائق التى أتى بها الصهاينة

كانت، كلها، حقائق موضوعية، ووقائع ثابتة، حدثت تحت سمع الناس وبصرهم.

فالصهاينة، في أغلب الأحوال، لا يختلقون الحقائق، وإنما يجتزئونها وحسب، ومن خلال اجتزائها ونزعها من سياقها يفرضون عليه المعنى الذي يريدون. وحيث إنه من المستحيل أن يرصد الإنسان كل الوقائع الخاصة بحدث ما، يصبح الاختيار مسألة حتميَة، ويصبح أساس اختيار الحقائق، لا الحقائق ذاته، هو ما يشكل مدى صدقها من زيفها، فالصدق والكذب ليسا كامنين في الحقائق الموضوعية ذاتها (هل هي صادقة أم كاذبة؟)، وإنما في طريقة تناولها، وفي القرار الخاص بما يُضمّ، ويستبعد، منها. ومن هنا قولي إن الحقائق شيء والحقيقة شيء آخر (والحق شيء ثالث). فالحقائق شيء ماديّ صرف يوجد في الواقع على هيئة تفاصيل متناثرة؛ أمّا الحقيقة فهي لا توجد في الواقع، وإنما يقوم العقل بتجريدها واستخلاصها بعمليات عقلية، حتى نصل إلى هذه الفكرة الكلية التي تفسّر أكبر قدر ممكن من الحقائق المتناثرة (أمّا الحق، فهو ينتمي إلى عالم المثل والإيمان، وهو يشكّل المنظور الأخلاقي المطلق الذي يحاكم الإنسان منه كلاً من الحقائق المادية والحقيقة الفكرية العقلية).

الفصل السابع

أزمة الصهيونية

ثمة انطباع عام فى الأوساط العربية مفاده أن الصهيونيـة هـى مشروع ناجح تمامًا، أسس الدولة وحقق كل ما يصبو إليه من أهداف وغايات، ولا يمكن إنكار أن فى هذا القول شيئًا مـن الحقيقة، فانتصارات الدولة الصهيونية العسكرية ووجود أربعة ملايـين مستوطن صهيونى فى وسط العالم العربى هو إنجاز استعمارى لا ريب فيه، ويعود هـذا النجاح لعدة أسباب من بينها ما يلى:

١ - اكتشف الصهاينة الإمبريالية الغربية بحُسبانها الآلية الأساسية فى القرن التاسع عشر لتنفيذ أى مشروع خارج أوربا، فكل من كان لديه مشروع يرغب فى تحقيقه ما كان عليه إلا أن يتبنى الحل الداروينى السحرى وهو الحل الإمبريالى. فالإمبرالية الغربية كـانت هـى القوة العظمى التى كانت تقتسم العالم وتُصدِّر له كل المشاكل الغربية وكل فواتير التقدم الغربية، وتبطش بمن يقف فى طريقها. فالسلع الكاسدة كانت تصدر إلى أسواق الشرق، والمواد الخام الرخيصة كان يتم الحصول عليها من أفريقيا وآسيا عن طريق تحويلها إلى اقتصاديات متخصصة ملحقة بالاقتصاد الغربى وتحويل شعوبها إلى

يد عاملة رخيصة. أما الفاشلون اجتماعيًا (اللصوص – المجرمون – من لم يحققوا حراكًا اجتماعيًا داخل الاقتصاد الرأسمالى) فكانوا يُصدَّرون، تمامًا مثل السلع الكاسدة، إلى المستعمرات فى الشرق، خاصةً الجيوب الاستيطانية. وقد اكتشف هرتزل عبث المحاولات الصهيونية السابقة عليه، الرامية إلى تأسيس الوطن القومى اليهودى من خلال (الجهود اليهودية الذاتية) ولذا بدلاً من التوجه لأثرياء اليهود مثل روتشيلد ، المليونير اليهودى، أو الحاخامات اليهود (بحُسبانهم القيادة التقليدية للجماعات اليهودية)، توجه مباشرةً إلى الاستعمار الإنجليزى.

٢ – حرص الصهاينة قبل وبعد تأسيس الدولة أن يحتفظوا بدورهم كقاعدة للاستعمار الغربى، وكقلعة أمامية له، تدافع عن أمنه ومصالحه. وقد ضمن لها هذا الوضع الدعم الغربى، العسكرى والسياسى والاقتصادى، الدائم.

٣ – الأيديولوجية الصهيونة أيديولوجية حديثة بمعنى الكلمة، داروينية حتى النخاع، لا تؤمن إلا بقيم الصراع والبقاء المادى للأقوى. وهى بالتالى أيديولوجية ذات جاذبية خاصة تلاقى هوى عند إنسان أوربا الحديث، داروينى المنزع والاتجاه. ومع هذا، ورغم داروينيتها الواضحة نجحت الصهيونية فى أن تخبىء هذا الجوهر المادى الحديث من خلال ديباجات دينية قوية ذات طابع رومانسى جذاب. وقد زاد هذا من مقدرتها التعبوية ولكنه فى ذات الوقت

كان مصدر ضعف، مما أدى إلى أزمة الصهيونية (كما سنبين فيما بعد).

٤ - الصهيونية أيديولوجية ذات مقدرة تعبوية عالية لأنها لجأت إلى صيغ مراوغة من الصعب كشفها إلا بعد عملية اختبار تستغرق وقتًا طويلاً. فقد ادعت الصهيونية أن اليهود شعب واحد وهو ادعاء ليس له ما يسانده فى الواقع. ومع هذا طُرح هذا الشعار، وكأنه حقيقة قائمة، وصدقه الكثيرون بما فى ذلك أعضاء الجماعات اليهودية. كما أنها ادعت أنها حركة يهودية وليست استعمارية استيطانية إحلالية، وهو ادعاء وجد صدى لدى الكثيرين فى العالم الغربى، بين اليهود وغيرهم، فهذا الادعاء يبرر عمليات السفك والبطش ويريح ضمير الإنسان الغربى.

٥ - تظهر الصيغة المراوغة للصهيونية فيما نسميه (قضية الصهيونيتين). ففى تصورنا لا توجد صهيونية واحدة وإنما صهيونيتان: صهيونية استيطانية وأخرى توطينية. والصهيونية الاستيطانية (كما يدل اسمها) هى صهيونية اليهودى الذى يهاجر إلى فلسطين ويستوطن فيها، أما الصهيونى التوطينى فهو الذى لا يهاجر أبدًا ويكتفى بتمويل عملية الاستيطان ودعمها. والصهيونية الاستيطانية كانت دائمًا من شرق أوربا أما التوطينية فتأتى أساسًا من غربها (والولايات المتحدة وأحيانًا وسط أوربا)، وهذا التناقض حاد وعميق. وقد سخر دعاة الصهيونية الاستيطانية من الصهيونية التوطينية سماها

«صهيونية الصالونات». ودائمًا ما يحدث اشتباك بين الفريقين داخل المؤتمرات الصهيونية. ومع هذا عرفت الصهيونية وعرف الصهاينة أن يتعايشوا مع التناقض وأن يتقبلوا الصهيونيتين. ومؤخرًا كف الصهاينة عن المطالبة بـ «نفى الدياسبورا» أى تصفيتها، كما كانوا يفعلون فى الماضى، كما كفوا عن المطالبة بـ «غزو الجماعات» أى توظيفها لصالح المستوطن الصهيونى. وأصبح الحديث الآن عن ـ «الدياسبورا الالكترونية » و «الصهيونية التقنية» و «الصهيونية الاقتصادية» (ويهودية «دفتر الشيكات») أى أن يساهم أعضاء الجماعات اليهودية بأموالهم ومعارفهم ونفوذهم فى دعم المستوطن الصهيونى، دون أن يستوطنوا فيه بالضرورة.

بذور الأزمة

ولكن إلى جانب مواطن القوة، توجد مواطن ضعف نذكر منها ما يلى:

١ - يمكن القول بأن كل أيديولوجية تطرح مثالية ما، ولكن المثالية لابد أن تختلف عن الأكذوبة، بمعنى أن الرؤية المثالية الحقة قد لا تكون موجودة فعلاً فى الواقع، ولكنها موجودة بالقوة، عناصرها هناك تود أن تتحقق من خلال العمل الإنسانى (ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك بالرؤية القومية العربية، فهى تطرح فكرة الوحدة وأن العرب شعب واحد، وهى ولا شك رؤية مثالية، فالعرب مقسمون. ولكن الرؤية المثالية لها جذورها القومية فى الواقع: اللغة الواحدة -

الذاكرة التاريخية الواحدة - الامتداد الجغرافى المتصل - التكامل الاقتصادى الممكن).

أما الصهيونية فهى تستند إلى أكذوبة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) تفصلها هوة سحيقة واسعة عن الواقع، حتى يمكن القول بأن الأيديولوجية الصهيونية عبارة عن ديباجة قوية لم تنبع من واقع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم ولا من واقع الفلسطينيين فى بلادهم، وإنما رؤية وُلدت على صفحات كتب مفكرين لم يدرسوا الواقع بما فيه الكفاية ولم يعرفوا إلا أقل القليل عن يهود العالم وعن فلسطين.

٢ - لكل هذا نجد أن الفكر الصهيونى فكر اختزالى يتجاهل معطيات الواقع سواء كان الأمر يتعلق بواقع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم أم واقع الفلسطينيين العرب. وتتضح هذه الاختزالية فى إنكار التاريخ والتفكير فى وضع نهاية له: تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية والتاريخ العربى فى فلسطين، كما يتضح فى إنكار الجغرافيا. ففلسطين تصبح إسرائيل، وهى بلد لا حدود لها، إذ أن حدودها داخل مفهوم إرتس يسرائيل الدينى.

٣ - لكل هذا نجد أن العقيدة الصهيونية أيديولوجية فاشية، نسق عضوى مغلق يخلع القداسة على الأرض (أرض الميعاد) والشعب (الشعب المختار) وينكر الآخر (الصراع مع الأغيار والعقلية الجيتوية). ومثل هذه الأيديولوجيات تُكسب حاملها قوة ومناعة

وصلابة، ولكنها في الوقت نفسه تتسم بالجمود والانغلاق. ومن ثم فكثير من التناقضات الكامنة داخل الأيديولوجية أو في واقعها حينما تتبدى في الواقع، تظهر بشكل عنيف إن لم يكن فجائيًا.

٤ - تستند الأيديولوجية الصهيونية إلى فكرة الهوية وإلى تعريف عضوى ضيق لها، ولذا فإن أية تحديات لهذه الفكرة تسبب شرخًا عميقًا في المجتمع.

إن عناصر الأزمة كامنة في الأيديولوجية الصهيونية، وقد ازدادت تفاقمًا حين بدأ تطبيقها على الواقع. ويمكن القول إن أزمة الصهيونية إن هي إلا نتيجة مباشرة للادعاءات الأيديولوجية الصهيونية المبدئية.

وقد أدَّت الأزمة إلى انفراط العقد الاجتماعي الصهيوني أو على الأقل تآكله. فقد كان هناك اتفاق على المقولات الأساسية، مثل أن اليهود شعب واحد (يضم الدينيين والإشكناز والسفارد وغيرهم)، وهو شعب يطمح للعودة إلى أرضه للاستيطان فيها، وأن الصهيونية ستنهى حالة النفى وستقوم بتطبيع اليهود. لقد فشلت الصهيونية في كل هذا، فاليهودى (هذا المكوِّن الأساسى لهذا الشعب اليهودى) لم يعرَّف بطريقة ترضى كل الأطراف، وهو شعب يرفض العودة لوطنه «القومى» ، الأمر الذى يخلق أزمة سكانية استيطانية. ولهذا، لم يَعُد هناك اتفاق على المكونات الأساسية للصهيونية وأهدافها المبدئية، فالرؤية ليس لها ما يساندها في الواقع، والواقع صلب لا يود أن يخضع للرؤية.

وقد ترجم هذا التآكل نفسه إلى عدم اكتراث بالمشروع الصهيونى الـذى ترجم نفسه بدوره إلى عدم الإيمان بالقيم الصهيونية (الريادية) المبنية على التقشف وتـأجيل الإشباع. وبـدلاً مـن ذلـك، ظـهر السـعار الاسـتهلاكى والنزوع نحو الأمركة والعولمة والخصخصة، وهى حالة لا تصيب الصهاينة وحدهم وإنما تصيب أىَّ مجتمع يفتقر إلى الاتجاه وإلى المشروع الحضـارى ولا يحل مشكلة المعنى. ولكن رغـم كـل هـذا التـآكل يظـل هنـاك إجمـاع صهيونى لم يتآكل وهو رفض الاعـتراف بالفلسـطينيين وحقـهم فـى هـذه الأرض التى تم اغتصابها.

ويجب أن نؤكد على أنه بوسع المجتمعـات الإنسـانية أن تعيـش فـى حالة أزمة مستمرة لعشرات السنين دون أن (تنـهار مـن الداخـل)، إن لم تُوجَّه لها ضربة من الخارج. والتجمُّع الصـهيونى ليـس اسـتثناءً مـن هـذه القاعدة، وخصوصًا أن كميات المسـاعدات التـى تصب فيـه مـن الولايـات المتحدة تزيد عن ثمانية بلايين دولار لمجمـوع عـدد السكان الـذى يبلـغ عددهـم حـوالى أربعـة ملايـين، الأمـر الـذى يجعـل التجمُّـع الإسـرائيلى (الاستيطانى الوظيفى) من أكثر المجتمعات تلقيًـا للمسـاعدات الخـارجيـة بالنسـبة لعـدد السـكان. فـالتجمُّع الصـهيونى لا يحـوى مكونـات بقائـه واستمراره داخله، فهو يستمدها من دولة عظمى تكفله وترعاه.

ويمكننا القول بأن عناصر الأزمة الصهيونية متشـابكة تمامًـا، فمشـكلة الهوية مرتبطة بالأزمـة السـكانية (الديموجرافيـة) وكلاهمـا مرتبـط بأزمـة الهجرة والاستيطان وبقضية تطبيع الشخصية اليهودية. ومع هذا سنعرض

لهذه العناصر كما لو كانت منفصلة الواحدة عن الأخرى، ولكن عملية الفصل هذه هى ضرورة تحليلية وحسب.

أزمة الهوية

١ – هوية المستوطنين:

حينما أسست الدولة الصهيونية كان الجميع يظن – حسب التعريف الصهيونى – أن ثمة تاريخًا يهوديًا واحدًا وهوية يهودية واحدة، ولكن حينما توافد أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين المحتلة اكتشفوا ما أشرنا إليه فى بداية هذه الدراسة وهو أن العناصر غير المشتركة بينهم أهم بكثير من العناصر المشتركة. فانقسمت الدولة على أساس عرقى إلى بيض وسود، وعلى أساس إثنى إلى سفارد وأشكناز، وعلى أساس دينى إلى علمانيين ودينيين وانقسم الدينيون بدورهم إلى أرثوذكس من جهة ومحافظين وإصلاحيين من جهة أخرى. وقد فشلت الدولة الصهيونية حتى الآن فى تعريف اليهودى. وهو فشل له أهمية خاصة فى السياق الصهيونى باعتبار أن إسرائيل تدَّعى أنها دولة يهودية أو دولة اليهود.

٢ – إشكالية الشخصية اليهودية:

كانت الصهيونية تزعم أنها ستشفى اليهود من أمراض المنفى (الهامشية – عدم الاشتغال بالوظائف الإنتاجية – الاشتغال بالمضاربات – عدم الانتماء) بنقلهم إلى فلسطين حيث سيقوم اليهودى بتخليص الأرض الفلسطينية من أيدى العرب بأن يستولى عليها ويقوم بزراعتها بنفسه

وبالعمل فى الوظائف الإنتاجية المختلفة، وهو بذلك يخلِّص الأرض ويشفى ذاته من أمراض المنفى فى الوقت نفسه. ولكن بعد ما يزيد عن مائة عام من الاستيطان الصهيونى وبعد أكثر من أربعين عامًا من تأسيس الدولة الصهيونية يلاحظ أن الإسرائيليين لا يزالون يعانون أمراض الدياسبورا (المنفى)، فهم يعشقون التجارة والمضاربات فى البورصة، كما أنهم انسحبوا من القطاعات الاقتصادية الإنتاجية مثل البناء (الذى يشغله العرب الآن). ونلاحظ أن المجتمع الإسرائيلى مجتمع يضرب الفساد فى أطنانه (المخدرات - الإباحية) ويدرك الإسرائيليون تمامًا أن دولتهم دولة وظيفية تعيش على الدعم الأمنى والمالى الأمريكى السخى المستمر، وأنهم بذلك لا يختلفون كثيرًا عن يهود الجيتو الذين كانوا يعملون لصالح الملك أو النخبة الحاكمة نظير ما يحققونه من أرباح ونظير الحماية التى يزودهم بها راعيهم، فكأن الدولة الوظيفية هى ذاتها مصابة بأمراض النفى من طفيلية وهامشية.

وتسود إسرائيل عقلية استهلاكية عقلية «روش قطان» أى الرأس الصغير، وهى تشير إلى الإنسان ذى الرأس الصغير والمعدة الكبيرة. وقد تصاعدت حدة هذا الاتجاه بعد موجة الهجرة السوفيتية الأخيرة فقد أتت بالعديد من المهاجرين الصهاينة المرتزقة، الذين ليس لهم أى انتماء أيديولوجى وغير ملتزمين إلا برفع مستواهم المعيشى، وقد أصبح لهؤلاء عدة ممثلين فى الكنيست وممثلين فى الوزارة الإسرائيلية، ولا يمكن لكثير

من الـوزارات أن تسـتمر فـى السـلطة دون دعمـهم وموافقتـهم، وينعكـس موقف المرتزقة هذا على جانبين مهمين من جوانب الحياة فى إسـرائيل: الاستيطان والخدمة العسكرية.

٣ - هوية الدولة اليهودية : منظور توطيني:

يطرح أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الكثير مـن الأسئلة بشـأن هويـة الدولـة اليهوديـة، ومـدى عمـق - أو حتـى حقيقـة - انتمائـها لليهودية، سواء بالمعنى الدينى أم الإثنـى، فـالمتدينون يتسـاءلون: كيـف يمكن أن تصنف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية وهى مـن أكـثر الدول إباحيـة فـى العـالم ولا يقيـم سـكانها الشـعائر الدينيـة اليهوديـة؟ ويتساءل اليهود المهتمون بإثنيتهم موروثهم اليهودى السؤال نفسه: كيـف يمكن أن نسمى الصهيونية التـى تـتزايد فيـها معـدلات الأمركـة والعولـة بخطـى متسـارعة دولـة يهوديـة؟ فبـدلاً مـن أن تكـون صـهيون الجديـدة أصبحت (ماك إسرائيل) الجديدة (نسبة إلى ماكدونالد). ويتسـاءل اليـهود من ذوى الاتجاهات الثورية: هل يمكن أن نسمى دولـة تقـوم بالتجسـس لحساب الولايـات المتحـدة وتزويـد النظـم الفاشـية فـى أمريكـا اللاتينيـة بالأسلحة وكانت تتعاون مع نظام الأبارتهايد (التفرقة اللونية) فى جنوب أفريقيا وحاولت قمع الانتفاضة بكـل أنـواع الإرهـاب المتاحـة، ولا تـزال تنكر على الفلسطينيين حق تقرير المصير وتستعمر أرضهم، كيف يمكن أن نسمى مثل هذه الدولة (يهودية)؟

٤ - هوية الدولة اليهودية: منظور استيطاني:

وقد طرحت القضية نفسها داخل إسرائيل ولكن على مستوى آخر وبشكل مختلف. فمن المعروف أن الاستعمار الصهيوني قد مر بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي المرحلة الإحلالية التي وصلت إلى ذروتها عام ١٩٤٨ مع إعلان الدولة وطرد الفلسطينيين ووصول آلاف المهاجرين للاستيطان في أرض فلسطين. وهنا بدأت المرحلة الثانية، مرحلة الدولة الصهيونية « اليهودية الخالصة » ، ثم انتهت هذه المرحلة عام ١٩٦٧، وبدأت المرحلة الثالثة حين قامت إسرائيل بضم الضفة الغربية والقطاع، وهي مناطق مأهولة بالسكان العرب الذين لم يتمكن الاستعمار الصهيوني من طردهم فتحول الاستعمار الاستيطاني الإحلالي (على طريقة أمريكا الشمالية حيث يُباد السكان الأصليون أو يُطردون) إلى استعمار استيطاني مبني على التفرقة اللونية (على طريقة جنوب أفريقيا حيث يتم الاحتفاظ بالأرض وبمن عليها من سكان يتم تحويلهم إلى مصدر للعمالة الرخيصة). وقد أتاح النظام العالمي الجديد فرصًا جديدة للنظام الاستيطاني الصهيوني بحيث أصبح بوسعه أن يتجاوز نطاق فلسطين المحتلة ليتغلغل في البلاد العربية وليحول السوق العربية إلى سوق شرق أوسطية يلعب هو فيها دور الوسيط الأساسي بين العرب والغرب، بل وبين كل دولة عربية وأخرى، ويصبح هو القناة التي توزع من خلالها رؤوس الأموال الخارجية على المنطقة، والهدف النهائي هو أن يقوم التجمع الصهيوني بتحديد شكل المنطقة وإدارتها بما يتناسب مع مصلحته والمصالح الغربية.

وتكمن المفارقة الكبرى فى أن توسع الجيب الاستيطانى يتطلب المزيد من المستوطنين، أى المادة البشرية المطلوبة للاستيطان والقتال حتى يمكنه من الاضطلاع بوظيفته التى تشكل أساس كيانه. ولكن المصادر البشرية للهجرة اليهودية قد جفت إلى حد كبير (بسبب تناقص أعداد اليهود فى العالم لانخفاض نسبة الخصوبة بينهم. وقد أفرغت الهجرة اليهودية السوفيتية الأخيرة المصدر الأخير للمادة البشرية الاستيطانية فى شرق أوربا، فيهود الولايات المتحدة وغرب أوربا هم صهاينة توطينيون ويهيجون دائمًا من أجل المستوطن الصهيونى ولا يهاجرون إليه قط). وتشاهد الدولة الصهيونية عددًا كبيرًا من النازحين، أى المستوطنين الصهاينة ممن يهاجرون من فلسطين المحتلة إلى الولايات المتحدة أو إلى أى بلد آخر، ومما يفاقم الأزمة تزايد السكان العرب.

كل هذا يجعل التوسع الاستيطانى والاقتصادى أمرًا عسيرًا، وقد ظهر فى إسرائيل صراع بين ما يسمى (الصهيونية الديموجرافية أو السكانية) و (صهيونية الأراضى). والاتجاه الأول الديموجرافى يرى أن الاحتفاظ بالأراضة المأهولة بالسكان العرب ليس من الحكمة فى شىء، فهم بتكاثرهم سيفوقون الصهاينة عددًا ويهددون الطابع اليهودى للدولة الصهيونية؛ بل ويرى هؤلاء أن تزايد عدد العرب يهدد الديمقراطية الإسرائيلية ذاتها، إذ من الصعب على دولة ديمقراطية أن تضم أقلية كبيرة (قد تصبح أغلبية) وتنكر عليها حق الاشتراك فى صنع القرار. ولذا يطالب دعاة هذا الاتجاه بتسليم المناطق المأهولة للعرب (كما حدث مع

قطاع غزة) والاحتفاظ بالنقط الإستراتيجية لضمان الأمن الإسرائيلى الأمر الذى سيوفر لإسرائيل الجو الملائم لتطوير اقتصادها بطريقة تسمح لها بقيادة منطقة الشرق الأوسط، أما الاتجاه الثانى (صهيونية الأراضى) فيذهب إلى أنه لا يمكن الانسحاب من أى من الأراضى التى احتلها الصهاينة (فهى أرض الميعاد المقدسة) وأنه يمكن الاحتفاظ بها وبمن عليها من السكان دون التخلى بالضرورة عن الطابع اليهودى للدولة (فالقمع المستمر للعرب سيضمن هدوءهم وهدوء المناطق كما تسمى الأراضى المحتلة فى الخطاب الصهيونى). ومما يجدر ملاحظته أن الاتجاه الأول يوصف بأنه (معتدل) بينما يوصف الثانى بأنه (متطرف) وحقيقة الأمر أنه لايوجد فارق جوهرى بينهما، فكلاهما يصدر عن الإجماع الصهيونى، ولايختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع، وترى الولايات المتحدة (رائدة النظام العالمى الجديد) أن مدرسة الصهيونية السكانية هى الأقرب لأهدافها، فالنظام العالمى الجديد يفضل عدم المواجهة المباشرة مع الشعوب المستغلة، وصهيونية الأراضى تؤدى إلى مثل هذه المواجهة.

تصاعد معدلات التوجه نحو اللذة

نظرًا للتوجه نحو اللذة فى التجمع الصهيونى نجد أن كثيرًا من المفاهيم الصهيونية قد تآكل وتراجع كما يتضح فى الموقف من الاستيطان ومن الخدمة العسكرية:

١ - تساقط المفهوم القديم للاستيطان:

المفهوم القديم للمستوطن الصهيوني باعتباره رائدًا يمسك المحراث بيد والبندقية بالأخرى قد تـآكل، وظـهر نـوع جديـد مـن المستوطنين الذيـن يبحثون عن الحراك الاجتماعي، وعن رفع مستوى معيشتهم، ولذا يلاحظ أن المستوطنات الجديـدة فـي الضفـة الغربيـة مختلفـة عـن المستوطنات القديمة، فلا يوجد فيها أي مظهر من مظاهر التقشف، وإنما توجد فيـها منـازل فـاخرة وحمامـات سباحة وكـل أشكال الرفاهيـة، والدعـوة إلى الاستيطان فيـها لا تـأخذ شكل شعارات دينيـة أو حتـى شبه دينيـة ولا أيديولوجيـة (أو حتـى شبه أيديولوجيـة) وإنما هـي دعـوة سـافرة للاستهلاك، فأحد الإعلانات عن أماكن للسكنى في إحـدى المستوطنات في الضفة الغربية يتحدث عن فيلا واسعة، في موقع جميل، بنصف ثمن الفيلات المماثلة داخل حدود عام ١٩٦٧ ولكنها مع هـذا تقع علـى بُعـد ثلاثين دقيقـة مـن وسط القـدس ونتانيـا وتـل أبيـب؛ أي أنـه أوكـازيون واستيطان في نفس الوقت، أو استيطان بالتقسيط المريح.

وهذه البيوت الاستيطانية الفارهـة لا يقـوم المستوطنون بحراستها إذ يتولى الجيش الإسرائيلي هذه المهمة بالنيابة عنهم، ولذا بدلاً من أن تكون المستوطنات هي المواقع العسكرية الأمامية للجيش الاستيطاني الصهيوني أصبحت تشكل عبئًا عسكريًا عليه. ولذا فقد أطلقنـا علـى هـذا النـوع مـن الاستيطان (الاستيطان مكيف الهواء) وهو يعكس واقع الحياة في إسرائيل أكثر من الشعارات الصهيونيـة الكاذبـة التـي تطلقـها أبـواق الصهيونيـة (والتي يصدقها بعض العرب).

ومما فاقم الوضع وصول ما يقرب من مليون من الاتحاد السوفيتى ليس لديهم انتماء يهودى (دينى إو إثنى) ولا حتى انتماء أيديولوجى صهيونى، فهؤلاء قد هاجروا لأسباب نفعية واضحة ولذا نحتنا مصطلح «الصهيونية النفعية» أو صهيونية المرتزقة لنصف دوافعهم) ولو سنحت لهم الفرصة للهجرة إلى الولايات المتحدة لفعلوا، وقد كوّن هؤلاء حزبًا سياسيًا ممثلاً فى الوزارة الإسرائيلية، وبرنامجه السياسى مكرس تمامًا لخدمة المهاجرين السوفيت دون أية توجهات أيديولوجية.

٢ - الخدمة العسكرية:

التجمع الصهيونى، كما نؤكد تمامًا تجمع استيطانى، وهو - شأنه شانه كل التجمعات الاستيطانية -- تجمع عسكرة، إذ أن عليه أن يقمع دائمًا، وبشكل مستمر، السكان الأصليين، ورفضهم للظلم الواقع عليهم، ومن ثم تكون الخدمة العسكرية أهم أعمال المواطنة، وكما قال أحد الشعراء الإسرائيليين: (إن كل الشعوب لها جيش ما عدا إسرائيل فإن الجيش له شعب).

ولكن لوحظ فى الآونة الأخيرة أن المستوطنين الصهاينة قد بدأوا ينصرفون عن الخدمة العسكرية بأعداد متزايدة، فهناك ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية التى لم تكن معروفة من قبل، وفى إحدى استطلاعات الرأى صرح ثلث الشباب الإسرائيليين أنه إن أتيحت لهم الفرصة أن يتحاشوا الخدمة العسركية الإجبارية (التى تستغرق ثلاث سنوات) لفعلوا ذلك، ويعتمد الجيش الإسرائيلى على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء

جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام ١٩٩٦ حوالى ٤٢٩,٠٠٠) مرة كل عام لمدة ستة أسابيع لإعادة تدريبهم، وقد لوحظ أن حوالى الثلث يتغيبون، وفى أثناء الصدام الذى وقع بين الجيش الإسرائيلى وسكان نابلس فى سبتمبر ١٩٩٦ استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم ٣٤٠، فلم يحضر سوى ٦٠، ولم يبق منهم سوى ثلاثين، وقد رفض أحدهم الذهاب للضفة الغربية، والأهم من هذا كله أن هناك قبولاً اجتماعيًا لهذا الموقف، وهو أمر جديد كل الجدة فى التجمع الصهيونى الذى كانت الخدمة العسكرية فيه (حتى نهاية الستينيات) تُعد الشرف الأكبر الذى يمكن للمواطن/المستوطن الحصول عليه.

وتعود ظاهرة الانصراف عن الخدمة العسكرية لعدة عوامل من أهمها التوجه نحو اللذة وضمور الدافع الأيديولوجى الصهيونى عند المستوطنين. ولكن مما عمق الاتجاه نحو الفرار من الخدمة العسكرية إحساس الإسرائيليين بما سماه المؤرخ الإسرائيلى يعقوب تالمون (عقم الانتصار) أى أن إسرائيل حققت انتصارات عسكرية كثيرة فى الأعوام (٤٨ – ٥٦ – ٦٧) ولكنها لم تنجح فى إنهاء حالة الحرب المنهكة، وقد تبع هذا مجموعة من الضربات: حرب الاستنزاف – حرب عام ١٩٧٣ – الهزيمة فى لبنان (المستنقع اللبنانى، كما يسمونه)، ثم جاءت الانتفاضة المجيدة عام ١٩٨٧، وعمليات حزب الله فى الجنوب اللبنانى (ومما لا شك فيه أن انتفاضة الأقصى ستصعِّد من هذا الاتجاه فى صفوف الجنود والمجندين الإسرائيليين). ولعل أكبر شاهد عى تراجع النزعة القتالية فى

التجمع الصهيونى وتصاعد معدلات التوجه نحو اللذة هو الضغط الشعبى المستمر على حكام إسرائيل أن ينسحبوا من لبنان بعد مقتل عدد من الجنود فى أثناء الحرب ضد المقاومة اللبنانية، إلى أن انتهى الأمر بالجيش الإسرائيلى الذى كان يدَّعى أنه لا يُقهر، بالانسحاب المذل فى جُنح الظلام.

اهتزاز مقولة (الوضع الراهن)

تُستخدَم عبارة (الوضع الراهن) للإشارة إلى الأمر الواقع الدينى بين المستوطنين الصهاينة إبَّان حكم الانتداب. فعلى سبيل المثال، تتوقف المواصلات العامة يوم السبت، ولكن يمكن استخدام السيارات الخاصة أو التاكسيات، وتُغلَق الشوارع فى الأحياء التى تقطنها أغلبية متدينة وتُترَك مفتوحة فى الأحياء الأخرى. أما أمور الزواج والطلاق فيسيطر عليها المتدينون (وهو استمرار لنظام الملة العثمانى والذى أبقت عليه سلطات الانتداب). وقد تم الاعتراف بالتعليم الدينى المستقل، وهو ما يعنى أن الدولة عليها أن تموله (وقد أصبح فيما بعد هو العمود الفقرى لتطور التطرف الصهيونى، ذى الديباجات الدينية). ولا تُعرض أفلام سينمائية ابتداءً من يوم الجمعة مساءً، وإن كان يُصرَّح بلعب كرة القدم يوم السبت (على أن تباع التذاكر فى اليوم السابق). وقد أرسل بن جوريون عام ١٩٤٧ (باعتباره رئيس الوكالة اليهودية) خطابًا إلى زعماء أجودات إسرائيل وعد فيه بالحفاظ على الوضع الراهن. وقد تم أيضًا إعفاء طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية.

والعقد الاجتماعى الصهيونى يستند إلى قبول (الوضع الراهن) باعتباره الإطار المرجعى لكل العناصر التى تقبل المشروع الصهيونى. والتفاهم العملى يمكن أن ينصرف إلى التفاصيل والفروع ولكنه غير قادر على حل المشاكل المبدئية، ولذا فالعقد الاجتماعى الذى يستند إليه المجتمع على يد صهاينة غير يهود لا يكترثون باليهود وينظرون إليهم من الخارج باعتبارهم مادة استيطانية. ثم انضم إليهم صهاينة يهود غير يهود (بمعنى أنهم لا يتمسكون بالشعائر الدينية ويحاولون التخلص من أية خصوصية إثنية يهودية، حقيقية كانت أم وهمية) يشاركونهم عدم الاكتراث هذا. ثم ظهر دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية الذين هوَّدوا الصهيونية العالمية عن طريق إدخال مصطلحات الحلولية اليهودية العضوية عليها. ثم كان هناك الجيب الصغير من الصهاينة الإثنيين الدينيين، وقد افترض هؤلاء منذ البداية أن الدين هو القومية وأن القومية هى الدين.

وقد تعايش التياران جنبًا إلى جنب: التيار الحلولى الدينى (القومية كدين والدين كقومية)، والتيار الحلولى العلمانى (القومية كدين)، وتقبلا سياسة الوضع الراهن، وكان من الممكن أن يستمر التياران فى التعايش إلى ما لا نهاية، فالخطاب الصهيونى المراوغ كان كفيلاً بذلك. ولكن قبول الوضع الراهن كان مجرد تفاهم عملى، ولم يكن مبدئيًا بأىّ شكل من الأشكال تتحكم فيه توازنات القوى بين الفريقين الدينى والعلمانى واللادينى.

وقد ظل الوضع الراهن قائمًا لمدة سنوات طويلة، ودخلت الأحزاب الدينية كل الائتلافات الوزارية التى حكمت إسرائيل، وقنعت بدور

التابع الذى يقنع بقطعة من الكعكة. ولكن مع تزايد علمنة المجتمع الصهيونى وعلمنة يهود العالم وتصاعد الخطاب الدينى وزيادة عدد الصهاينة من دعاة الديباجات الدينية وظهور مشكلة إجراءات التهود زادت حدة الاستقطاب فى المجتمع الصهيونى بين الدينيين والعلمانيين.

ومن الأمثلة على ذلك الموقف من طلبة المعاهد الدينية، فعند إعلان الدولة، وحين تم إعفاءهم من الخدمة العسكرية، كان عددهم لا يتجاوز ٤٠٠، ولكن عام ١٩٩٧ كان عددهم يزيد عن ٢٩,٠٠٠. وهذه الألوف لا تعمل، فهم طلبة وحسب، أى أن نسبة كبيرة من المستوطنين أصحاب الديباجات الدينية يعيشون على نفقة دافع الضرائب الإسرائيلى. ولذا أشار لهم أحد كبار العلمانيين فى إسرائيل بأنهم «طفيليون»، وهى كلمة لها مدلول خاص فى المعجم الإسرائيلى، إذ كان يستخدمها أعداء اليهود للإشارة لهم. وقد قال شيمون بيريز حين هُزم فى الانتخابات: «لقد هزم اليهود الإسرائيليين»، كما لو كان هناك فريقان متصارعان فى إسرائيل: «يهود متدينون» ضد «إسرائيليين علمانيين»، والفريق الأخير ليس «يهوديًا».

واحتكار المؤسسة الدينية لعمليات الزواج والدفن يثير حفيظة العلمانيين. فالمهاجرون اليهود السوفييت (وعدد كبير منهم «غير يهود» حسب التعريف الأرثوذكسى) لا يمكنهم أن يتزوجوا فى إسرائيل أو يدفنوا حسب الشريعة اليهودية فيها. وقد أخرج جثمان أحدهم بعد خمسة أعوام من دفنه حين شكّت المؤسسة الحاخامية فى يهوديته.

كما أن أحد المستوطنين من أصل سوفيتي لقي حتفه بعد إحدى الهجمات الاستشهادية الفلسطينية ومع هذا لم يتم دفنه في مقبرة يهودية.

كل هذا أدى إلى أن حوالى نصف الإسرائيليين يـرى أن الموقـف المتـأزم بين العلمانيين والمتدينين سيؤدى إلى نشوب حرب أهلية (وقد تكون هـذه مبالغة ولكنها «مبالغة دالة»، إن صح التعبير)، وقد قال الحاخام حـاييم ميلر إن الحل هو الفصل بين الفريقين منعًا للاشتباك بينهما.

ومما فاقم من حدة التناقض ظـهور مـا يُسـمَّى «الأصوليـة اليهوديـة». وتستخدم هذه العبارة في الخطاب السياسى العربى والغربـى للإشـارة إلى شكل من أشـكال التطـرف الدينـى عـادةً «الأرثوذكسـى» (وتُـترجم كلمـة «أصولي» أحيانًا إلى كلمة «متزمت» أو «متشدد» أو «متطرف» ممـا يعنـى ترادف كل هذه المصطلحات مع لفظ «أرثوذكسي». وهذا خلل نـاجم عـن تطبيق مصطلح دينى، تم اقتراضه من نسق دينى ما ثم تطبيقه على نسق آخر).

ويرى مسـتخدمو هـذا المصطلـح أن هـذه الأصوليـة تعـود إلى الحاخـام أبراهام كوك (الذى كان يشغل منصب الحاخام الإشكنازى فـى فلسـطين) وأنها مستمرة حتى هذه الأيام (على يد ابنه الحاخام تسفى كوك وغيره)، بل إنها آخذة في التنامى. فقد بلغ عدد أعضـاء الكنيسـت «الأصوليـين» عام ١٩٩٩، أى ممثلى الأحزاب الدينية (المفدال وديجيل هاتوراه وشاش) ٢٣ عضـوًا (مقـابل ١٦ عضـوًا فـى الكنيسـت السـابق) مـن مجمـوع ١٢٠ عضوًا. وتُعد هذه أكبر نسبة في تاريخ إسرائيل السياسى.

وهذا التيار الدينى أصبح بمقدوره التحكم فى رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومات. ولا يمكن تشكيل أية حكومة دون مشاركته (رغم أن أعضاء هذا التيار غير معنيين بالسياسة بالمعنى الضيق للكلمة فهم يهتمون بميزانيتهم بالدرجة الأولى) وهم يستأثرون بوزارات المستقبل (التعليم - الإسكان - الأراضى - المهاجرون - الأديان) ويتحكمون فى وزارة حيوية مثل وزارة التعليم، ويقال إنهم أصبح لهم نفوذ كبير داخل الجيش. فهناك حاخامية عسكرية تتولى مهمة التوجيه الفكرى والدينى داخل القوات المسلحة، وهى تباشر كل شئون الأحوال الشخصية المتعلقة بالعسكريين، وتشرف على المدارس العسكرية الدينية، وتخرج أجيالاً مسكونة بالكراهية المطلقة للعرب، كما تتولى الحاخامية إصدار الفتاوى التى تضفى القداسة على الممارسات والجرائم التى يرتكبها الجنود ضد العرب. وقد أوصل هذا التغلغل داخل الجيش عددًا غير قليل من الضباط الأرثوذكس إلى مراتب عليا.

وفى استطلاع أجرته صحيفة يديعوت أحرونوت قال ٤٧٪ من الإسرائيليين أنهم يتوقعون حدوث حرب أهلية بين المتدينين والعلمانيين اليهود (وقد تكون هذه مبالغة، ولكنها هى أيضًا «مبالغة دالة»). ودعاة الأصولية اليهودية يقفون الآن بمنتهى الحزم والشراسة ضد أى انسحاب من الضفة والجولان ويؤيدون طرد العرب، وهم مستعدون للذهاب فى سبيل الدفاع عن موقفهم هذا إلى ابعد مدى. ولا تنس أنهم يعتبرون باروخ جولدشتاين منفذ مجزرة الحرم الإبراهيمى قديسًا ومثلاً أعلى يجب الاحتذاء به.

والأطروحات الأساسية لهذه «الأصولية» - حسب تصور من يستخدمون هذا المصطلح - كما يلى:

١ - إنشاء دولة إسرائيل هو تجسيد للحلم التوراتى اليهودى القديم، رغم أن الحركة الصهيونية نفسها، المؤسسة للكيان الصهيونى، لم تكن حركة دينية، وإنما كانت أيديولوجية سياسية علمانية، ورغم أن الآباء المؤسسين (الحرس القديم) مثل بن جوريون وإيجال آلون، كانوا ملحدين فى حياتهم، علمانيين فى طرق تفكيرهم. ويسمى كوك هذه الظاهرة (وعد دينى يتحقق على يد علمانيين) «الانشطارية». ولذا بينما يرفض الأصوليون هذا الطابع العلمانى للدولة، فإنهم يقبلون بفكرة الدولة اليهودية نفسها (على عكس ناطورى كارتا التى ترفض فكرة الدولة من أساسها).

٢ - لا يمكن الثقة فى الأغيار، بأى شكل، وأرض إسرائيل الكبرى هى أرض يهودية، ولابد للدولة اليهودية أن تعتمد على نفسها وحسب. (رغم كل المساعدات الخارجية التى تصب فيها). ولذا لا يفهم أعضاء هذا اليمين الدينى الموازنات الدولية حق الفهم. وهم يتصورون أنه لا يمكن عقد سلام مع العرب، بل يجب طردهم أو تهجيرهم. ولذا نجد أن الأغلبية الساحقة لهؤلاء المستوطنين من أصحاب الديباجات الدينية يقفون ضد أى تنازل عن «الأرض اليهودية».

وهذه المقولات ليست بالضرورة مقولات دينية ويمكن لأى حزب علمانى أن يتبناها. وبالفعل نجد أن اليمين يضم فى صفوفه متدينين

قوميين وعلمانيين لا دينين. فهو يضم أحزابًا دينية مثل حزب المفدال وشاس وديجيل هاتوراه، ولكنه يضم أيضًا أحزاب موليدت وإسرائيل بعالياه وتسوميت. وحزب إسرائيل بعالياه هو حزب الصهاينة المرتزقة، أى المهاجرين السوفييت الراغبين فى تحسين مستواهم المعيشى، أما حزب تسوميت، فهو حزب صهيونى لا دينى. ولا يمكن الحديث عن نتنياهو أو عن جيله بأسره، باعتباره متدينًا.

التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية

من مظاهر الأزمة الصهيونية «التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية» وهذا التكاثر المفرط هو سمة أساسية للفكر الصهيونى منذ ظهوره. فهناك «الصهيونية الدبلوماسية» و «الصهيونية السياسية» و «الصهيونية العامة» و «الصهيونية العمالية» و «الصهيونية الاشتراكية» و«الصهيونية الدينية» و «الصهيونية العلمانية» و «الصهيونية الثقافية» و«الصهيونية الروحية» و«الصهيونية التصحيحية» و«الصهيونية التوفيقية» و«الصهيونية الإقليمية» و «صهيونية بدون صهيون» و«صهيونية صهيون» و«الصهيونية المسيحية» وصهيونية الأغيار» وغيرها من المصطلحات.

وقد استمرت الظاهرة بعد إنشاء الدولة وإن كان إسهال المصطلحات قد عبَّر عن نفسه من خلال أسماء الأحزاب التى تتغيَّر بمعدل جنونى عند كل انتخابات وما بينها. وإذا كان التكاثر المفرط للمصطلحات سمة أساسية للخطاب الصهيونى قبل عام ١٩٦٧ فإن الأمور ازدادت سوءًا

بسبب تصاعُد الأزمة، فهناك الأزمة البنيوية للصهيونية وتوتر العلاقة بين المُستوطَن الصهيونى ويهود العالم. ولأن الأزمة لا حل لها والتوتر يتصاعد فإن الحلول المطروحة هى الأخرى تتزايد بشكل مفرط، ومن ثم تتكاثر المصطلحات وتتداخل فتضطرب.

وبعض التيارات الصهيونية الجديدة توصف بأنها «معتدلة» (صهيونية الخط الأخضر - صهيونية الحد الأدنى - الصهيونية الديموجرافية)، ويوصف البعض الآخر بأنه «متطرف» (صهيونية الأراضى - صهيونية الحد الأقصى - الصهيونية المتوحشة). وحقيقة الأمر - كما أسلفنا - أنه لا يوجد فارق جوهرى بينهما، فكلاهما يَصدُر عن الإجماع الصهيونى ولا يختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع.

ويظهر الخلط فى المصطلح أيضًا فى إدراك الحركة الصهيونية أن «الشعب اليهودى» يؤثر المنفى على «الوطن القومى» وأنه يحجم عن الهجرة إليه. ولكنها مع هذا ترفض الاعتراف بالأمر الواقع. ومما يزيد الأمور اختلاطًا أن هؤلاء الذين يرفضون الهجرة يسمون أنفسهم «صهاينة» لأسباب نفسية محضة لا علاقة لها بواقعهم أو سلوكهم. وقد طالب بن جوريون بعدم تسميتهم «صهاينة»، فالصهيونية - كما قال - هى الهجرة والاستيطان (ومن وجهة نظرنا، الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها والقتال من أجلها)، فطالب بتسميتهم «أصدقاء صهيون» وحسب. ولكن مثل هذه الراديكالية قد تفضح المشروع الصهيونى ومن هنا مصطلحات مثل «الصهيونية النقدية» و «الصهيونية التقنية» (وهى سليلة

مصطلح بورخوف «صهيونيــة الصالونـات»). وهـى مصطلحـات تشـير إلى ظاهرة رفض أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الهجـرة دون تسـميتها بشكل صريح.

ونظـرًا لكـل هـذه التطـورات أصبحـت كلمـة «صهيونيـة» (تسـيونوت بالعبريـة) تعنـى «كـلام مـدع أحمـق» (الجيروسـاليم بوسـت ٢٦ أبريـــل ١٩٨٥) وتحمل أيضًا معنى «التباهى بالوطنية بشكل علنى مُبـالَغ فيـه»، وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة فى حقل السياسة (الإيكونومسـت ٢١ يوليه ١٩٨٤ وكتاب برنارد أفيشاى مأساة الصهيونية، ص ٢٦). ومن الواضح أن حقل الكلمة الدلالى أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر: صهاينـة الخـارج، أى الصهاينـة التوطينيـون الذيـن يحضـرون إلى فنـدق صهيون ويحبون أن يسمعوا الخطب التى لا علاقة لها بالواقع، ولذا فهى ساذجة، مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهى العلنى بالوطنية. وتشير فـى الوقت نفسه إلى الصهاينة الاستيطانيين الذيـن يعرفـون أن الخطـب التـى عليهم إلقاؤها إن هى إلا خطب جوفـاء ومبالغـات لفظيـة لا معنـى لهـا، ولكن عليهم إلقاؤها على أيـة حـال حتـى يجـزل لهـم الضيـوف العطـاء. والمقصود الآن بعبارة مثل «اعطـه صهيونيـة» هـو «فلتتفـوه بكـلام ضخـم أجوف لا يحمل أى معنى»، فهو صوت بلا معنى وجسـد بـلا روح ودال بدون مدلول.

وبطبيعة الحال يستطيع الكيان الصـهيونى أن يتعـايش مـع كـل هـذه الأزمـات، ولكـن حينمـا يـهب الفلسـطينيون فـى انتفاضـة رفـض شـاملة

(كما حدث فى انتفاضة ١٩٨٧ وفى انتفاضة الأقصى والاستقلال) وحينما يقوم العرب بالهجوم على هذا الجيب الاستيطانى المغروس كالشوكة فى حلقنا (كما حدث فى جنوب لبنان)، فإن أزمة المجتمع الصهيونى تتبلور ويكتشف المستوطنون الصهاينة أن الادعاءات الصهيونية بأن فلسطين أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض وأن الصهيونية هى القومية اليهودية، أو عودة اليهود إلى أرض أجدادهم هى كلها أكاذيب فرضها الصهاينة فرضًا على الواقع من خلال عمليات متواصلة من الإرهاب والعنف ومن خلال الدعم الإمبريالى الغربى.

الفصل الثامن

انتصار الإنسان فى جنوب لبنان

لا يتعامل الإنسان مع واقعة بشكل مادى مباشر، وإنما يتعامل معه من خلال مجموعة من الأفكار والرموز والأساطير. وقد أصبحت الصور المجازية والأساطير جزءًا أساسيًا من الحروب الدائرة فى العالم، خاصة فى عصر الإعلام. إذ يبحث كل فريق مقاتل عن مجموعة من الشعارات والصور المجازية التى يبرر بها موقفه ويسبغ عليه قدرًا من الشرعية. وحينما ظهر رجل أوربا النهم (أى الاستعمار الغربى) وتفتحت شهيته وقرر التهام العالم وجد أن عليه أن يستخدم مجموعة من الصور المجازية والأساطير فأطلق على الدولة العثمانية اصطلاح «رجل أوربا المريض» أى أنه حولها من خلال صورته المجازية إلى رجل مريض ميئوس من حالته سيتحول إلى جيفة ميتة بعد قليل، ولا غضاضة بطبيعة الحال فى اقتسام الجيفة، بل إن هذا يُعد خدمة للإنسانية المعذبة!

جغرافيا بلا تاريخ

وقد ورث الصهاينة هذا الإجراء الواعى أحيانًا، وغير الواعى أحيانًا أخرى، وصعَّدوا منه، خاصةً وأن اليهود وإسرائيل وفلسطين وصهيون هى مفردات أساسية فى الميراث الدينى الغربى، ولذا نجد أن الصهاينة قد

أحاطو فلسطين بدخان كثيف من الأساطير، صدَّقه بعضنا، فقد أشاروا إلى فلسطين باعتبارها «أرضا بلا شعب» (يمكن للصهاينة شراؤها وتفريغ سكانها منها) ولذا أشاروا إلى وطننا العربى باعتباره «الشرق الأوسط» ثم «المنطقة» وحسب، أى أنه تم إدراك كل شىء بحسبانه مكانًا لا زمان له، جغرافيا بلا تاريخ، شىء بلا ذاكرة، كل هذا جعل الشرق العربى منطقة يمكن للجيوش الصهيونية أن تصول وتجول فيها دفاعًا عن «أمنها» و«حقوقها» وأصبح العرب مفعولاً به لا فاعلاً، فالفاعل هو الصهاينةوجنودهم المقاتلون الشرسون، بل إن الجماعات اليهودية فى العالم (التى يُشار إليها باعتبار الشعب اليهودى) أصبحت جماعة من البشر يدور تاريخها حول المكان، فهو تعبير عن الرغبة فى العودة إلى فلسطين «إرتس يسرائيل» ، مكان توقف فيه التاريخ، ولذا فهو ينتظر عودتهم بفارغ الصبر.

وإنكار الزمان هى إحدى سمات العقل الصهيونى الذى يحول الزمان (حيث يتحرك الإنسان ويحقق الإنسان إنسانيته أو يجهضها وحيث يمارس حريته وإرادته) إلى مكان مصمت. والزمان بالنسبة للعربى هو الحيز الذى يمكنه أن ينهض فيه ويحرر أرضه ونفسه، ولذا فالعقل الصهيونى يمقت الزمان ويؤثر أن يتحرك فى المكان. وقد تُرجمت هذه الرؤية إلى عدة صور مجازية: فالدولة الصهيونية تارة «حائط فى آسيا لحماية أوربا» و«حصنا منيعًا للحضارة الغربية فى وجه الهمجية» (عبء الرجل الأبيض الصهيونى!)، وهى تارة أخرى «الحارس الغربى فى المنطقة». وفى لحظات الصدق تُستخدم صورة «كلب الحراسة: رأسه فى

واشنطن وذيله فى القدس»، أى أنه كلب حراسة لا عقل له، أو أن عقله فى واشنطن، فهى التى تفكر، وهى التى تمد الكلب بالحيـاة، أمـا ذيلـه التنفيذى فهو هنا فى وسـطنا فـى عالمنـا العربـى. وبـالطبع هنـاك الصـور المجازية الأكثر وضوحًا مثل«إسرائيل باعتبارهـا حاملـة طـائِرات»، وَقـد صاحب هذا مجموعة من الصور المجازية الأخـرى مثـل جيـش إسـرائيل باعتبـاره الـذراع الطويلـة التـى تصـل إلى أى مكـان،والقـوة الباطشـة الأسـطورية التـى لا تُقـهر، والصـهيونى باعتبـاره المقـاتل الشـرس الـذى لايُهزم، والذى يدافع عن أرضه بشراسة، ويلاحظ أن كل الصور المجازية هنا تُسقط الآخر العربى باعتباره وجودًا يتحدى الوجود الصهيونى وتُسقط عنصر الزمان والتاريخ باعتبارهما المجال الذى يعبِّر فيه الآخر العربى عن نفسه.

فى هذا الإطار تأسست نظريـة الأمـن الإسـرائيلية المبنيـة علـى المكـان والتى تنكر الزمان، وأصبحت المشكلة الأمنيـة بالنسـبة للصهاينـة مسألة حدود جغرافية أمنة وأراضٍ يتم الإستيلاء عليها، وسكان يتم ضربهم بيـدٍ من حديد. وفى هذا الإطار تصور الصهاينة أنهم يمكنهم حل كل مشـاكل المستوطن الصهيونى الأمنية، ومع نكسـة عـام ١٩٦٧ تدَّعـم هـذا الاتجـاه تمامًا، فأعلن الصهاينة أنهم وصلـوا للحـدوم الآمنـة، والحـدود الدائمـة، وأنهم سيمكثون هناك إلى أن يقوم العرب بالتسليم، كان خط بـارليف هـو بلورة لهذا الموقف وأيَّدهم العالم الغربى فى موقفهم هـذا، فقـد أحسـوا أن الزمن قد قُتل، وأن التاريخ العربى والصراع العربى الإسـرائيلى قـد وصـلا إلى نهايتهما!

ومن الأساطير الأساسية الأولى التى صدَّقها الإسرائيليون والتى ورثوها من ترسانة الأفكار الإمبريالية الغربية، هى الإيمان بأن القوة قادرة على تحقيق أى شيء، فالعالم، فى نهاية الأمر، يشبه الغابة، وقد ترجم هذا نفسه إلى ما سماه موشيه ديان «خلق الحقائق»، أى أن تغتصب الأرض بالقوة وبمضى الوقت يصبح الاغتصاب حقيقة قائمة على الجميع الاعتراف بها والتعامل معها، هكذا فعلوا فى فلسطين باسرها، وفى مناطق أخرى من العالم العربى.

والتوسعية الصهيونية هى إحدى تجليات مفهوم العالم كغابة هذا، والقوة كآلية وحيدة لحسم الصراع، ولذا مع وجود الآلة العسكرية الصهيونية لم لا يمتد الوطن « القومى» من النيل إلى الفرات؟ (كما صرح الحاخام فيشمان عضو الوكالة اليهودية فى أربعينيات القرن الماضى)، وكما بين أورى أفنيرى أن ما يحرك الصهاينة ليس الدافع العقائدى وإنما موازين القوى وحسب، ولذا فالتوسع الصهيونى لم يتوقف ما دام هناك فراغ بسبب الغياب العربى، وقد تمدد الصهاينة وتوسعوا ليملأوا الفراغ فى جنوب لبنان وليخلقوا حقائق صلبة جديدة فيه.

والرؤية المتمركزة حول المكان قد ترجمت نفسها إلى أسطورة ماسادا، و«ماسادا» كلمة آرامية تعنى «القلعة»، وكانت توجد بها حامية رومانية هاجمها بعض المتمردين اليهود عام ٦٦ ميلادية إبان التمرد اليهودى ضد الإمبراطورية الرومانية واستولوا عليها وذبحوا كل أعضائها. وقد أخمد

الرومان التمرد وقاموا بحصار القلعة، وتقول الأسطورة: إنه بدلاً من الاستسلام والوقوع أسرى في أيدى الرومان آثر اليهود ممارسة انتحار جماعى. وقد ثبت كذب هذه القصة، ومع هذا تقوم أجهزة الإعلام الإسرائيلى بمحاصرة العقلية الإسرائيلية واليهودية بأسطورة ماسادا، ففى كل عام تُقيم بعض أسلحة الجيش الإسرائيلى احتفالات تردد يمين الولاء على قمة القلعة ويقسمون فى نهايته بأن ماسادا لن تسقط ثانية.

وقد أضفنا نحن من عندنا أسطورة يهودى البروتوكولات، وهو شيطان يوجد خارج الزمان، قادر على تحريك العالم بأسره، وزرع الفساد فى ربوعه وإسقاط الحكومات وتوجيهها حسبما يريد، والسيطرة على الإعلام وحركة رؤوس الأموال، ونلاحظ أنه إذا كان اليهودى بهذه القوة فلا يوجد ما نفعله سوى الاستسلام، أو الفرار، لأن الحرب ضد مثل هذا الشيطان هو من قبيل الانتحار! فكل من البروتوكولات (المعادية لليهود) وماسادا (الصهيونية) يتفقان فى عدم جدوى الجهاد وضرورة الاستسلام.

وحينما وصلت القوات الإسرائيلية إلى بيروت أرسلت رسالة واضحة عالية إلى كل الدول العربية: إنها على أتم استعداد أن تذهب إلى أقصى حد كى تحقق أهدافها الصهيونية بما فى ذلك احتلال العواصم العربية، وإن الولايات المتحدة على أتم استعداد أن تؤازر إسرائيل فى مطامعها وبطشها. وما بين المطامع الصهيونية والقوة العسكرية الإسرائيلية والمظلة

الأمريكية واللوبى الصهيونى لا يملك العرب بطبيعة الحال إلا التفاوض والاستسلام، أليس كذلك؟

بعث روح المقاومة

ولكن ما حدث في جنوب لبنان هزم كل هذه الأساطير وقضى عليها، والانتصار اللبناني على إسرائيل يوجب علينا أولا وأخيرا أن ننظر بطريقة جديدة للصراع العربى الإسرائيلى إن كان فينا بقية من روح ووعى وضمير، لنؤكد للعدو أننا لسنا أمواتًا، وإنما يوجد جسد وروح وإرادة وعزيمة ورغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطن. وأن تاريخنا لم ينته، وأن الحياة تدب فى أرواحنا، وأن روح المقاومة تسرى فينا، وأن إمكانية هزيمة الآلة العسكرية الاستخبارية الإسرائيلية (التى تساندها آلة الولايات المتحدة و الغرب) إمكانية حقيقية.

ولنبدأ أولاً بوضع هذا النصر الأخير في إطاره الحقيقى، هو نصر باهر لاشك فيه، رفع رؤوسنا جميعًا، ولكنه ليس هو الوحيد، فهو ليس مجرد فلتة (كما يحلو لبعض الصهاينة أن يرددوا حتى يطمئنوا أنفسهم، وكما يحلوا لبعض المهزومين من العرب أن يفعلوا حتى يحتفظوا بتوازنهم ويستمرا فيما هم فيه من غيبوبة واستسلام). إن انتصار المقاومة فى لبنان هو جزء من نمط متكرر، فنحن فى حربنا مع العدو ننتصر وننكسر، وننكسر وننتصر،ولكننا والحمد لله لانتستسلم، وما لاشك فيه أن هناك العديد من الانكسارات التى نعرفها جميعًا لكن هناك أيضا انتصارات قبل

وبعد ١٩٤٨ يجب ألا ننساها. يجب أن نتذكر أن أطول حركة عصيان مدنى فى التاريخ وقعت فى فلسطين فى منتصف الثلاثينيات من القرن الماضى وغير ذلك من البطولات الفردية والجماعية. أما بعد ١٩٤٨، فلم تهدأ المقاومة قط. ولكنها أخذت شكلاً أكثر تبلورًا فى أعمال المقاومة ابتداءً من عام ١٩٦٥ ثم معركة الكرامة فحرب الاستنزاف فانتصار عام ١٩٧٣ فالانتفاضة المجيدة عام ١٩٨٧ فانتفاضة الأقصى ٢٠٠٠.

إن تكرار النمط هو تأكيد لإمكانية الانتصار الأخير بإذنه الله، ويجب ألا ندع آلة الإعلام الصهيونية ترسخ فى وجداننا غير ذلك، وانتصار حزب الله يؤكد هذا النمط ويبعث فكرة المقاومة مرة أخرى، فيرى الناس إمكانية الجهاد وإمكانية هزيمة الآلة العسكرية الاستخبارية الإسرائيلية التى تساندها الآلة الأمريكية والغربية بأسرها.

وفى محاولة لتبرير موقف الإسرائيليين تقول مجلة تايم «إن الإنسحاب وضع نهاية لاحتلال لا معنى له استمر لمدة ثمانية عشر عامًا، وأودى بحياة مئات الجنود الإسرائيليين. فلقد استمرت إسرائيل فى احتلال لبنان حتى تحارب حزب الله، وحزب الله حارب ضد إسرائيل لأنه بقى فى لبنان». وهذه أكذوبة، فدخول إسرائيل للبنان لم يكن للحرب ضد حزب الله وإنما لتحقيق الأهداف الأستراتيجية الاسرائيلية الغربية، وهى تفتيت العالم العربى ابتداءً من لبنان، وحزب الله بدوره لايحارب ضد إسرائيل لأنها فى جنوب لبنان وحسب، فالمسألة أعمق من ذلك بكثير.

وقد تأمل الإسرائيليون كثيرًا فى أسباب انتصار المقاومة اللبنانية، وكعادتهم فسروا المسألة بطريقة مكانية حتى لا يدركوا البعد التاريخي لهذا النصر، ولنترك باراك يتحدث، يقول هذا العنصرى القديم، الذى تنكّر فى زي امرأة واغتال بعض القيادات الفلسطينية فى لبنان وترأس فريق المستعرفيم (المستعربين) الذى كان يتنكّر فى زى عربى ويذهب إلى الأسواق الفلسطينية ويغتال بعض نشيطى الانتفاضة: «إن الحرب ضد الإرهاب مثل الحرب ضد البعوض، يمكن أن تطارد البعوضة تلو الأخرى، ولكنها حرب ليست مجدية من ناحية التكلفة»، ولنلاحظ أن الصورة المجازية هنا تحاول أن تحقق عدة أمور، التقليل من شأن المقاومة، وتحويلها إلى شىء لا قيمة له، بل ضارة، يجب التخلص منه وإبادته وإعطاء مبرر للصهاينة للانسحاب، فالمسألة بالنسبة له مسألة تكلفة لا أكثر ولا أقل.

ولكن الزمان يتسلل إلى خطابة، رغم أنفه، فحينما سأله مندوب مجلة تايم لِمَ لَمْ تطالب بالانسحاب من لبنان حينما كنت رئيسًا للأركان؟ اضطر باراك أن ينطق بالحقيقة، فالمسألة قد تكون مسألة تكلفة ولكنها مسألة تكلفة «متصاعدة»، تبين أن العرب يتعلمون ويستفيدون ويطورون أنفسهم، يقول باراك: إنه لم ينسحب حينما كان رئيسًا للأركان لأن الأمر لم يكن ناضجًا «حينذاك»، وكل من «متصاعدة» و«حينذاك» تفتحان الباب على مصراعيه للزمان، إذ إن باراك يعترف أن حزب الله قد نضج

بمرور الزمن، وكيف كان ذلك؟ «لقد قطع حزب الله مسافة طويلة منذ ذلك الوقت، مما اضطرنا لأن نزيد من استعدادنا وانتهى بنا الأمر بأن أصبح عندنا عربات مصفحة ضد متفجرات من عيار ٥٠ ك ج ، وهذا وحش كاسر حينما بدأنا كنا ندافع عن سياراتنا ضد الألغام، واللغم عبارة عن ٤,٥ كجم من المتفجرات، فوضعوا لغمين، الواحد مع الآخر، مما اضطرنا إلى أن نجعل سياراتنا أكثر تحصينًا، فاستخدموا أسلحة أكثر تطورًا من بينها صواريخTOWوهى تصيب أهدافها بدقة، فتجد نفسك متورطًا فى حرب متقدمة للغاية تتطلب الكثير من التكاليف. فبكل بساطة رغم أننا كانت يدنا هى اليد الطولى،إلا أن الموقف كان يتدهور بشكل حلزونى إلى أسفل ويؤدى إلى سحبنا بشكل أعمق وأعمق فىالوحل»، رغم أن باراك لايستطيع أن يتخلى عن عنصريته وخيلائه (فهو لو فعل لظهر عاريًا أمام نفسه وأمام العالم: القائد المهزوم) ولذا نجده يطعِّم خطابه بعبارات مثل «اليد الطولى»و«الوحل» ولكن الرسالة التاريخية الزمنية قد وصلته، واعترف بها رغم كل محاولاته أن يخبئها ويتملص منها.

ذكر باراك أن حزب الله استخدم أساليب قتالية متطورة تكتيكات عديدة، ولكنه لم يذكر جوانب أخرى، تذكِّر الدارس بانتفاضة١٩٨٧، وأهمها أن المواجهة لم تتم بين الجيش الغازى ومجموعة صغيرة من المقاتلين تم تدريبهم بكفاءة، وإنما تمت بين الجيش الإسرائيلى الغازى والكتلة البشرية اللبنانية بأسرها ومن ضمنها النخبة المقاتلة، وأن هذا مكنها من تحقيق قدر عالٍ من التماسك جعل من الاختراق مسألة

مستحيلة وزاد من ثقة المقاومة بنفسها فاستطاعت هي من اختراق العدو واستخدام أحدث وسائل الدعاية والاستخبارات،وهذا ماحدث تمامًا إبَّان الانتفاضة، وهذا ما حقق لها قدرًا كبيرًا من الاستمرار والنجاح، فأمام مثل هذا الحائط البشرى التاريخى ماذا يمكن للعدو أن يفعل؟

لقد تحولت «الحدود الآمنة» و«الحزام الآمنى» إلى «مستنقع» و«كابوس» و«مأساة» (هذه كلها صور مجازية إسرائيلية). وحتى يُسكت معارضيه استشهد باراك بمناحم بيجين الذى قال: «إن لبنان مأساة، لايمكن تحملها»، ثم أضاف أن بيجين بعد اكتشافه هذا ضرب على نفسه العزلة إلى أن مات كمدًا (حينما ذكرت وقتها ذلك فى إحدى مقالاتى تهكم أحد الواقعيين العرب عليَّ، وأخبرنى أن الرجل مات حزنًا على زوجته، وأتهمنى بمرض التفاؤل الثورى وعدم تقبل واقع الاحتلال.. السرطانى).

إن «المستنقع اللبنانى» أصبح صورة مجازية أساسية فى الوجدان الإسرائيلى (بعد أن كانوا فى الماضى يتباهون بأنهم جاءوا إلى فلسطين فوجدوها مستنقعات وصحارى، فجففوا المستنقعات وزرعوا الصحارى)، ولكن باراك، مثل معظم الكذابين، يفقد أحيانًا سيطرته على الصور المجازية التى يستخدمها كسحابة دخان لتغطية رؤيته الحقيقية فتفضحه بدلاً من أن تستره، فيقول: «إن منهجنا هو تجفيف المستنقع» [عن طريق الانسحاب]، ولكن إذا كان الانسحاب هو تجفيف المستنقع، فالماء الراكد

إذن هو جيش الغزو الصهيونى، وجنوده هم البعوض، أليس كذلك؟. ثم ينطق باراك بالحق، «لم أر قوة عسكرية أصبحت أكثر قوة، أو أى أمة أكثر ثقة بنفسها، بأن حاربت ضد رجال العصابات المقاتلة فى بلد آخر».ويقر باراك: «أن القيادة لابد أن تنظر للواقع بعيون مفتوحة، حتى لو كان هناك شىء من القسوة فى ذلك» فيقرر الانسحاب. ولكن ما هى القسوة فى أن ينسحب صاحب اليد الطولى الذى يطارد البعوض؟ القسوة تكمن فى أن البعوض ليس بعوضًا، وإنما مقاومة حاولت ونجحت فى تحرير الأراضى المحتلة، وأنها تمثل أنبل القيم الإنسانية، وأن صاحب اليد الطولى هو جيش مستعمر قطعت يده أو حرقت أصابعه، فولى الأدبار، وقد بدأ يدرك أنه جيش استعمارى ظالم يمثل أخس ما فى الإنسان.

إن إفرايم سنيه كان أكثر دقة وأمانة فى وصفه للواقع الإسرائيلى حينما قال: «نحن نفضل كوليرا الانسحاب على سرطان وطاعون بقاء الاحتلال»، فصورة المرض المجازى تُستخدم هنا لوصف كل من الاحتلال والانسحاب، فبقاء القوات الإسرائيلية مرض وانسحابها مرض، والاختيار هنا بين الأمرين أو المرضين، ولكن علينا نحن العرب أن نتذكر أن ما حوّل الاحتلال من نزهة خلوية إلى كوليرا هو مقاتلو حزب الله.

محاولة توظيف الانسحاب

ويفترض الإسرائيليون - كما أسلفنا - أن العرب مفعول به، يمكن تحريكهم كما يشاء المستعمر الصهيونى ويمكن القول بأن المشروع

الصهيونى ككل يستند إلى هذا التصور،أليست نقطة الانطلاق هى الغياب العربى؟ فلو أن العرب موجودون بالفعل، فهل هناك مجال للوجود الصهيونى؟ أليست فلسطين أرضًا بلا شعب؟ وأليس وطننا العربى مجرد «منطقة»، مكان بلا زمان وجغرافيا بلا تاريخ، ومساحة يتحرك عليها بشر لايمكن أن يُحسب لهم حساب ؟

ولذا تصور الإسرائيليون أنهم بانسحابهم سيحققون عدة أشياء من بينها أنهم سيعطون العالم صورة إيجابية عن أنفسهم، فهم يمتثلون لقرار هيئة الأمم٤٢٥باعتبارهم جماعة متحضرة. ولكن من يمكن أن يصدق مثل هذه الأكذوبة/النكتة، تنفيذ القرار بعد مرور٢٢عاما، هكذا وبدون مقدمات؟هل استيقظ الضمير الإسرائيلى فجأة،وبث الله النور فى صدورهم؟

ولكن العالم كله يعرف أن هناك أجندة خفية، فالتصور الإسرائيلى للمنطقة هى أن تُقسَّم إلى دويلات إثنية وعرقية ودينية متنافرة متناحرة (دولة كردية – دولة شيعية – دولة سنية – دولة مارونية، وهكذا)، ومن ثم يمكن لإسرائيل أن تكون الدولة القائدة. وكان التصور الإسرائيلى أن لبنان هى أكثر دولة مرشحة للتقسيم وتجربة الحزام الأمنى كانت فى تصورهم هى البداية. ورغم فشلهم فى ذلك (فالمقاومة الإسلامية فى لبنان كانت تضم مسلمين ومسيحيين، إيمانيين وعلمانيين، تمامًا مثل جيش لحد العميل، فهو لم يكن جيشًا، مسيحيًا، كما يحلو للبعض أن يروجوا، وإنما كان لفيفًا من نفاية المجتمع اللبنانى ككل)، نقول رغم فشلهم إلا أن الصهاينة لا يتعلمون من التاريخ (وكيف يتعلمون منه وهم

ينكرونه)،ولذا فهم لايزالون يتصورون أنهم بانسحابهم يمكنهم زرع الفرقة فى لبنان وأن يجعلوه يسقط صريع الفتنة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين وبين الشيعة والسنة... إلخ،وأنهم يمكنهم أن يصعدوا الخلافات بين الجيش اللبنانى والمقاومة بأن يصروا على ضرورة نزع سلاح المقاومة وأن يقوم الجيش اللبنانى بحماية المنطقة الشمالية لإسرائيل!وهم أخيرًا يتصورون أنهم بانسحابهم سيمكنهم تحقيق ما يريدونه من فصل للمسار السورى عن المسار اللبنانى(تتلخص الإستراتيجية الإسرائيلية فى التعامل مع كل دولة عربية على حدة،حتى يمكن التهامها كاللقمة السائغة).

وكل هذا بطبيعة الحال ممكن، ولكن قيادة حزب الله أظهرت وعيًا بحيل العدو، إن كان فى تعاملها مع سكان المناطق المحررة أو حتى مع العملاء الذين سلموا أنفسهم، فلم يتم اضطهادهم أو رجمهم كما فعل الفرنسيون مع المتعاونين مع النازيين.

كما أن لبنان (وسوريا) قد بينا للعدو أن انسحابه ليس هو نهاية المطاف، فهناك قضية مزارع شبعا، وقضية تعويض لبنان عن الأضرار التى حاقت بها نتيجة الاحتلال. وهناك قضية المعتقلين اللبنانيين فى السجون الإسرائيلية، وأخيرا هناك القضية التى لم يطرح الصهاينة أى حل لها منذ تأسيس المنظمة الصهيونية وهى قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين يزيد عددهم حسب بعض الإحصاءات عن ٣٥٠ ألف لاجىء.

وقد بدأت الأساطير الصهيونية تتآكل الواحدة تلو الأخرى، فبدلاً من التوسعية الصهيونية. ها نحن نرى الانكماشية الصهيونية، والانسحاب المذل وبدلاً من أمريكا المسكة بكل أوراق اللعبة، قالت إحدى الصحف الإسرائيلية (مستخدمة نفس الصورة المجازية) « لقد كسب حزب الله كل الأوراق » .

ولنأخذ مثلاً آخر، أسطورة ماسادا التى يُراد منا تصديقها. لم يقف التاريخ عام ١٩٦٧ بل استمر فطوَّر الإنسان العربى نفسه وتحرَّك عام ١٩٧٣ فتساقط خط بارليف، فهو لم يكن حائطًا منيعًا ضد التخلف الشرقى (كما ادعًى هرتزل)، بل كان مليئًا بالثقوب مثل قطعة الجبن (كما قال ديان)، ومن المعروف أن القوات الإسرائيلية التى حوصرت فى خط بارليف عام ١٩٧٣، استسلمت بطريقة عملية رشيدة للغاية على مسمع ومرأى الصليب الأحمر الدولى والتليفزيون المصرى، وفى أحد هذه المواقع سأل الجنود قادتهم بتهكم إن كان المطلوب هو القتال حتى الموت لإقامة ماسادا ثانية، فأتاهم الرد بالاستسلام على أن يبتسموا أمام عدسات التليفزيون المصرى.

وأثناء انتفاضة ١٩٨٧ لم يتحدث أحد عن ماسادا وإنما تحدثوا عن الطائرة المروحية. وما هى حكاية الطائرة المروحية هذه؟ يقول شارون إنه إن لم يصمد الإسرائيليون فستأتى الطائرات المروحية وسيستقلها الإسرائيليون من على سطح السفارة الأمريكية، كما حدث فى حرب

فيتنام عند انسحاب القوات الأمريكية، وقد كتب أحد الشعراء الإسرائيليين (حاييم حيفر) آنذاك قصيدة بعنوان «سنرحل جميعًا إلى أمريكا» ، تبدأ القصيدة بالتصويت فى الكنيست على الخروج الأخير، ولذا «فلنرحل إلى أمريكا الآن/ فلقد لملمنا حقائبنا وأمانينا »، ويتدافع الجميع دون نظام (ولاتتزاحموا.. لكلٍ مكانه/ عفوًا لاتضغطوا هكذا). لقد حزمت الحكومة حقائب الرحيل إلى امريكا. ويتصور رئيس الوزراء عملية الخروج السريع هذه وهو يجلس فى مقعده فى الطائرة، ويروق له المقام/ يعلن أن لا مكان للباقين هنا » ، فلسان حاله وحال وزرائه هو «نحن ومن بعدنا الطوفان»، إن الصورة السائدة هنا عكس صورة البطل فى ماسادا الذى يهلك مع رفاقه :

وبسرعة أخذت الطائرة . . . تطير

أما الدولة

فقد هجرت

وحيدة . . تركت . . إسرائيل

تركت بقية الشعب رغم أننا جميعًا . . فى الرحيل إليها. . راغبين

بعيدًا عن ماسادا المتهالكة، بعيدًا عن صهيون التى اشتعلت فيها النيران، إلى الولايات المتحدة الوطن القومى الآمن وربما الحقيقى.

وقد انتحر عدد من الجنود الإسرائيليين فى جنوب لبنان ولم يكن انتحارهم تعبيرًا عن الإصرار فى الدفاع عن أماكنهم، وإنما كان احتجاجًا

على حرب لا معنى لها من وجهة نظرهم. كما لوحظ تصاعد ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية. إن أسطورة ماسادا، شأنها شأن الأساطير الأخرى، مثل المقاتل الصهيونى الشرس، واليهودى الشيطان الذى يُسيِّر العالم هـى مجرد أكاذيب تهدف إلى تنشيط لهمة وإشاعة عقلية الهزيمة.

ويعبِّر نشيد الهاتيكفـاه (الأمـل) نشـيد الحركـة الصهيونيـة، والنشـيد القومى الإسرائيلى، عن واحـدة مـن أهـم الأسـاطير الصهيونيـة، اسـطورة الشعب الواحد الذى يتوق للعودة لوطن أجداده:

« ما دامت روح اليهودى

فى أعماق القلب تتوق

ونحو الشـــرق

تتطلع العيون لصهيون ،

أملنا لن يُفقد أبدًا »

ماذا فعل الجنود الصهاينة بنشيدهم الصهيونى هذا، بدلاً من التفـاخر بالعلم الصهيونى القديم غنوا نشيدهم فى جنح الظلام وبسرعة ثم فروا من المستنقع والمأساة والجحيم. ولعلـهم فـى خروجـهم اكتشـفوا أن كلمـات النشيد اكتسبت معانى ساخرة، فعيونهم تنطلق إلى صهيون بالفعل، ولكن صهيون لايتمتد من النيـل إلى الفرات، وإنمـا اكمشـت لتصبـح غسـرائيل داخل حـدود ١٩٤٨ ، بـل إن شمـال صـهيون المجـاور لجنـوب لبنـان، أصبح يعيش فى حالة رعب وانهيار أكثر من ذلك الانـهيار الـذى حـدث

لجيش لبنان الجنوبى: فقد ساد الفزع المستوطنين وغـادرت أعـداد كبـيرة منهم إلى وسط إسرائيل عند ذويهم، وعرض أعداد منـهم منـازلهم للبيـع، أى أنهم خرجوا من شمال إسرائيل مثلما خرجت القوات الإسرائيلية مـن جنوب لبنان، والبقية تأتى بإذن الله.

و« الخروج » فى الوجدان اليهودى عادةً مرتبط بالخروج exodus من مصر أيام موسى التوراتـى، ثـم أصبـح يشـير إلى الهجـرة الاستيطانية إلى إسرائيل، ولكن المصطلح ارتبط مؤخرًا فى الوجـدان الإسـرائيلى الحديـث بواقعهم المتردى. ولـذا سميـت هجـرة الإسـرائيليين إلى الولايـات المتحـدة الخروج الثانى، أو الخروج مـن صـهيون. فـهل سيسـمَّى الانسـحاب مـن بيروت «الخروج الثالث»؟ وماذا عـن الخـروج الرابـع والأخـير بـإذن الله والذى أشار له الشاعر الإسرائيلى فى قصيدته ؟ !

باب الجهاد والاجتهاد مفتـوح، وهـذا مـا أكـده الجـنرال الإسـرائيلى شاؤول موفاز. فحينمـا أخـبره أحـد الصحفيـين الأمريكيـين أن الأمـر قـد انتهى بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، قال مسـتنكرًا، عمَّ تتحدث؟ إنتهىً؟ هذا وضع جديد ولنر مـاذا سـيحدث؟ ومـن يجتـهد ويجاهد هو الذى سيقرر طبيعة النهاية، أما الواقعية والاستكانة فنتائجـها مضمونة تماما. ـ الهزيمة النكراء!

الفصل التاسع

انتفاضة الأقصى
وجذور العنف الصهيونى

نشاهد يوميًا فى الفضائيات مدى عنف الاستجابة الإسرائيلية للانتفاضة الفلسطينية، وهو عنف لم نرى مثله من قبل فى عمليات القمع الإسرائيلية. والحق يقال إننى توقعت هذه المواجهات العنيفة منذ أن بدأ ما يسمَّى بعملية السلام. وشعرت باقترابها حينما صرح أحد المفاوضين الفلسطينيين أنه لم يتم التوصل إلى سلام دائم وإنما إلى مفاوضات سلام دائمة، وهو تعليق ساخر تشوبه المرارة يصف الطريق المسدود الذى دخلته عملية السلام، والذى جعل الفلسطينيين يدركون مدى عبثية عملية أوسلو بأسرها.

ومع هذا حين اندلعت انتفاضة الأقصى وحين قوبلت بكل هذا العنف الإسرائيلى، اعترتنى الدهشة، وتساءلت كيف يمكن للإسرائيليين بعد هذا أن يستمروا فى الزعم أنهم يريدون التعايش جنبًا إلى جنب مع الفلسطينيين، خاصة بعد أن تم إسقاط أهم الثوابت الفلسطينية (عدم الاعتراف بإسرائيل - الميثاق الوطنى الفلسطينى) وتم وضع علامة استفهام

على بعضها (عودة اللاجئين)، وكـل هـذا مـن أجـل سـلام يتسـم بـالحد الأدنى من العدل.

الرؤية الصهيونية للواقع

لم يكن أمــامى مـن سـبيل لفـهم كـل هـذا العنـف إلا بـالعودة للرؤيـة الصهيونية للواقع التى تحدد إدراك الإسرائيليين لأنفســهم ولـمن حولهـم. وإدراك المرء للواقع (وليس الواقع فى حد ذاته) هـو الـذى يحـدد سـلوكه وكيفية استجابته لما يـدور حولـه. كـان علـىَّ العـودة إلى المقولـة البسـيطة السـاذجة التى تشكل اساسًا للتصور الصهيونى للواقعـن وهـى أن فلسـطين «أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض» والنصف الثانى من المقولة، أن اليهود شعب جائل لا وطن له، ثبت كذبه، إذ إنه بعد قرن كامل من الاستيطان الصهيونى وبعص نصف قرن من إعلان الدولة، لاتزال الغالبية الساحقة ليهود العالم موجودة خارج الدولة الصهيونية، مما ينفى عن هذه الدولة صفة أنها وطن كل يهود العالم، وينفى عن اليهود صفة أنهم شعب يتطلع للعودة لوطنه، ومع هذا أمكن للدولة الصهيونية التعـايش مـع هـذا الوضع وأن تستمر فى طريقها، كأن شيئًا لم يحدث.

أما بالنسبة للنصف الأول من المقولة «أرض بلا شعب» فالمسـألة أكـثر عمقًـا ولا تتحمـل أى تـهاون، إذ إن الإجمـاع الصـهيونى (الـذى يشـكل الإطار الإدراكى والأيديولوجى لكل الصهاينة) يسـتند إليـها، ففلسـطين، من منظور صهيونى، هى إرتس يسرائيل، وطن اليهود القومـى، ومـن ثـم

فإن اليهود، كل اليهود، لهم حقوق مطلقة فيه، والحقوق المطلقة لا تقبل الآخر، مما يعنى إنكار حقوق العرب فى أسوأ تقدير أو تهميشها فى أحسنه ومن هنا قانون العودة الصادر عام ١٩٥٠، الذى وصفه بن جوريون – عن صدق – بأنه عمود الصهيونية الفقرى، وهو قانون يمنح أى يهودى ترك «وطنه المزعوم» من عدة آلاف من السنين «الحق» فى العودة ليصبح مواطنًا فور «عودته» وتنكر، فى الوقت ذاته، هذا الحق على ملايين الفلسطينيين القابعين فى مخيمات اللاجئين.

هذا الإجماع هو ما يتفق عليه كل الصهاينة، متطرفهم ومعتدلهم، يمينهم ويساريهم، رأسماليهم واشتراكيهم، وهو شكل من أشكال العنف الفكرى، فهو رؤية اختزالية للواقع المركب يستبعد من وجدان الصهاينة فلسطين وشعبها وتاريخها بل وجغرافيتها. والصهيونية فى هذا لاتختلف عن التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية الأخرى، حين يتم نقل كتلة بشرية من أوربا ويتم توطينها فى أرض جديدة، وعادة ما يشارك أعضاء هذه الكتلة فى تبرير موقفهم باللجوء إلى ديباجات مختلفة ولكنها مع هذا لها سمات ثابتة:

١ – فكل المستوطنين عادةً ما يتجهون إلى إلغاء الزمان (التاريخ) أو تجميده والانفصال عن المكان. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض لابد أن تُغيِّب السكان الأصليين تمامًا. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض المهاجرين من العالم الغربى هى عادة رفض تاريخ بلادهم الأصلية، باعتباره تاريخ اضطهاد وكفر. ويحاول المهاجرون أن يضعوا حلاً نهائيًا

لمشاكلهم وأن يبدأوا من نقطة الصفر الفردوسية في الأرض الجديدة، ويتضح هذا الجانب في اسطورة الاستيطان الصهيونية التي تبدأ برفض تاريخ اليهود في المنفى (وضمن ذلك العالم الغربي) والصهيونية هي الحل النهائي الذي يطرحه الصهاينة والاستيطان في صهيون هو نقطة البداية والصفر.

٢ – ينكر المستوطنون البيض تاريخ السكان الأصليين في الأرض التي سيهاجرون إليها ويستوطنون فيها. فهي عادةً أرض عذراء بلا تاريخ، غير مأهولة بالبشر (أرض بلا شعب)، على عكس الأرض التي يأتي منها المستوطنون، فهي مكتظة بالسكان.

ومرة أخرى نجد أن أسطورة الاستيطان الصهيونية تعبِّر عن هذا بشكل متبلور، إذ يزعم الصهاينة أن فلسطين هي إسرائيل أو صهيون، وأن تاريخها قد توقَّف تمامًا برحيل اليهود عنها، بل إن تاريخ اليهود أنفسهم قد توقَّف هو الآخر برحيلهم عنها. ولن يستأنف هذا التاريخ إلا بعودتهم إليها، ولكنه تاريخ جديد خال من الاضطهاد والصراع، فهو أقرب إلى التاريخ المقدَّس.

٣ – لا تؤكد أسطورة الاستيطان الغربية نهاية التاريخ وحسب وإنما نهاية الجغرافيا كذلك، فالأرض التي يستوطن فيها الإنسان الأبيض هي أرض وحسب، ليس لها حدود واضحة ولذا فهي تتسع حسب قوة الإنسان الأبيض الذاتية، كلما زاد عدد المستوطنين وازدادوا قوة اتسعت الحدود. ومن هنا فكرة الرائد والجبهة المتسعة دائما. والرائد هو الذي

يرتاد أرضا جديدة دائما، لا يعرف حدودًا ولا قيودًا ولا سـدودًا. وارتبـاط نهاية التاريخ بنهاية الجغرافيا أمر متوقع، ففكرة الحـدود فكـرة إنسـانية حضارية غير طبيعية، أما عالم الطبيعة والمادة فلا يعـرف الإنسـان، ومـن ثم فهو لا يعرف الحدود.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية هي اسـطورة التوسـع بالدرجـة الأولى، فإرتس يسرائيل ليس لها حدود واضحة. فالعهد القديم يحتوى أكـثر مـن خريطة والمستوطنون الصهاينة أطلقوا على أنفسـهم مصطلـح «حالوتسـيم» أى «رواد».

٤ – إذا حـدث أن كـانت الأرض التـى يقـال لهـا «عـذراء» مأهولـة بالسكان فإن أسطورة الاسـتيطان الغربيـة تحـاول تهميشـهم، فـهم قليلـو العدد متخلفون يفتقرون إلى الفنون والعلـوم والمـهارات المختلفـة، يـهملون الثروات الطبيعة الكامنة فى الأرض. وهم عادةً مجـرد رحالـة لايسـتقرون فى أرض ما، وهم شعب لا تاريخ له، فأعضاؤه جزء لايتجزأ من الطبيعـة (كالثعالب والذئاب) ومن ثم لا حقوق لهم. لكل هذافإن وجود مثل هـؤلاء الناس هو وجود عرضى ومن الضرورى وضع حل جذرى ونهائى للمشكلة الديموجرافية، أى مشـكلة وجـود السـكان الأصليـين فـى الأرض العـذراء وضرورة اجتثاث شأفتهم تمامًا.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية تنظر للوجود الفلسـطينى فـى فلسـطين باعتباره أمرا عرضيا هامشيا، والاعتذاريات الصهيونيـة مليئـة بـالحديث عن فلسطين باعتبارها أرض مهجورة مهملة، وكثيرًا ما يتحدث الصهاينة

عن الفلسطينيين كما لو كـانوا جـزءًا مـن الطبيعـة بـلا تـاريخ. وكـل هـذا ينتهى بطبيعة الحال بتأكيد حـق اليـهود المطلـق فـى فلسـطين. وتحـاول الحركة الصهيونية وضع حل نهائى للمشكلة الديموجرافية فقامت أحيانًا بالإبادة (دير ياسين - كفر قاسم) ولكن الطرد كان الشكل الأساسى، وبعد اتفاقيات أوسلو أخذ الحل النهائى شكل عـزل السكان الأصليـين داخـل مجموعة من القـرى والمدن ومحاصرتـهم بـالقوات العسكرية الإسـرائيلية والطرق الالتفافية.

٥ - تم تـبرير الـرؤى الاسـتيطانية الإحلاليـة عـن طريـق القصـص الإنجيلية، وهنا يحدث تلاق كامل بين أسطورة الاستيطان الغربية العامة وأسطورة الاستيطان الصهيونية، فالمستوطنون البيض (وضمنهم الصهاينـة) ينظرون إلى أنهفسهم باعتبارهم من الأباء (البطارقة) الذيـن تركـوا بلادهـم ليستقروا فى بلاد أكثر اتساعا، أو فى أرض عذراء لم يستوطن فيـها أحـد من قبل، وهم مثل العبرانيين يخرجـون مـن مصـر (أوبـابل) أرض المنفـى البغيضة، وينسلخون مـن تاريخـها ليعـودوا إلى صـهيون (الجديـدة) بـأن «يصعدوا» لها. فإن وجدوها مأهولة فأهلها إذن مـن الكنعـانيين الذيـن لا حق لهم فى الأرض ومصيرهم هو الحل النهائى: الطرد أو الإبادة.

وغنى عن القول أننا حينما نتحدث عن «أسطورة» فنحـن لانتحـدث عن واقع تشكّل ولا حتى عن برنـامج عمـل؛ وإنمـا عـن قصـة أو قصـص يوجد فيها بشكل كامن نموذج معرفى، وهذه القصة مستبطنة تمامًا، تعبِّر

عن نفسها بشكل جزئى وتتحقق بعض جوانبها فى أماكن وأزمنة متفرقة، ولاتتحقق مجتمعة إلا فى لحظة نماذجية نادرة.

استنادًا إلى كل هذه التبريرات الأسطورية يدَّعى المستوطنون أن لهم حقًا فى اغتصاب الأرض الجديدة من سكانها الأصليين ويحل لهم إبادتهم أو طردهم. والولايات المتحدة مَثل واضح على الاستعمار الإحلالى الذى يلجأ للإبادة، والدولة الصهيونية هى مثل واضح على النوع الثانى المبنى على الطرد.

ومما عمق من العنف الإدراكى لدى الصهاينة، هو تفسيرهم للعقيدة اليهودية. فقد حوَّلوا العهد القديم إلى فلكلور الشعب اليهودى، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف حروب كثيرة خاضها العبرانيون ضد الكنعانيين وغيرهم من الشعوب التى أبادوا بعضها، وهو يفصل فصلاً حادًا بين الشعب اليهودى المقدس والأغيار (أى غير اليهود)، بكل ما يتبع ذلك من ازدواجية فى المعايير تجعل الآخر مباحا تمامًا وتجعل استخدام العنف تجاهه أمرًا مقبولاً. والصهاينة فى هذا - بالمناسبة - لايختلفون كثيرًا عن المستعمرين البيض فى أمريكا الشمالية وجنوب إفريقيا وغيرها من الجيوب الاستيطانية. فأعضاء الكتلة البشرية الوافدة دائما يزعمون أنهم أكثر تفوقًا من السكان الأصليين (فهم شعب مختار أو جنس أبيض متفوق أو رسل حضارة) وبأسم هذا التفوق يقومون بإبادة كل من يقابلهم من كنعانيين أو هنود حمر أو فلسطينيين.

كما أن الصهاينة (على عكس ما يتصور الكثيرون) يكرهـون الشـخصية اليهودية وينعتونها بالسـلبية والهامشـية والخنـوع والعجـز، ولـذا طـالبوا بتحديث الشخصية اليهودية حتى يمكن أن تتخلص من خنوعها وتصبـح شخصية قادرة على القتـل، وكمـا قـال بيجـين: «أنـا أحـارب، إذن أنـا موجود». ومن قبله أوصى أستاذه جابوتنسكى اليهود بـأن يتعلمـوا الذبـح من الأغيار «فالتوراة والسيف أنزلا علينا من السماء».

الرؤية الصهيونية للعرب

وقد طوَّر الصهاينة صورًا إدراكية للعربى تنزع عنـه إنسـانيته وتُجـرده تمامًا حتى تُغيِّبه. وتتسم هذه النظريـة بتصـاعد معـدلات التجريـد إلى أن نصل إلى النقطة التـى يتحقـق فيـها النمـوذج الصـهيونى الإدراكـى وهـى التغييب الكامل للعرب:

١ - العربى كعضو فى الشعوب الشرقية الملونة (تخفيض العربى):

وفى إطار هذا التصوُّر ، يُقدِّم الصهاينة وصفًا للشخصية العربيـة علـى أنها شخصية متخلفة، ومثل هـذا الوصـف أمـر شـائع فـى الاعتذاريـات العنصرية وفـى أدبيـات الاسـتعمار الأوربـى، فـالوصف هنـا ليـس وصفـا للعربى بقدر ما هو وصف لأى آسـيوى أو أفريقـى (أو حتـى أى أمريكـى اسود)، والاستعمار الصهيونى، فى أحد تصوراته لنفسه، كـان يـرى أنـه جـزء (تـابع) لايتجـزأ مـن الحركـة الإمبرياليـة الغربيـة، ومـن الهجمـة

العسكرية الحضارية على الشرق العربى لإدخال الحضارة والسكك الحديدية والبلاستيك والقنابل.

٢ - العربى ممثلا للأغيار (تجريد العربى):

وقد وُصف الأغيار فى الأدبيات الصهيونية بأنهم: ذئاب، قتلة، متربصون باليهود، معادون أزليون لليهود، و«الأغيار» مقولة مجردة، بل إنها أكثر تجريدًا من مقولة «اليهودى» فى الأدبيات النازية، أو مقولة «الزنجى» فى الأدبيات العنصرية البيضاء، وهى أكثر تجريدًا لأنها لاتضم أقلية واحدة، أو عدة أقليات، أو حتى عنصرا بشريا بأكمله، وإنما تضم كل الآخرين فى كل زمان ومكانن وقد وضع الصهاينة الإنسان العربى على وجه العموم، والفلسطينى على وجه الخصوص داخل مقولة «الأغيار» حتى يصبح بغير ملامح أو قسمات.

وتظهر مقولة «الأغيار» هذه فى وعد بلفور (أهم الوثائق الصهيونية) حيث أشار إلى العرب (الذين كانوا يشكلون أكثر من حوالى ٩٣٪ من مجموع السكان) على أنهم «الجماعات غير اليهودية»، دون تحديد هذه الجماعات أو ذكر اسمها، حتى تظل هذه الجماعات عند مستوى عال من التجريد، إن هذه الجماعات غير اليهودية هى أية جماعة إنسانية تشغل الأرض التى سيستوطن فيها الشعب اليهودى. وبينما كان هرتزل يتفاوض بشأت كريت موقعًا للإستيطان الصهيونى كتب عن الجماعات غير اليهودية التى تقطنها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بأنهم «عرب، يونانيون، هذا الحشد المُختلط من الشرق».

٣ – تهميش العربى :

إن عملية التجريد السابقة تستهدف تهميش العربى حتى لايشغل مركز الأحداث بالنسبة لفلسطين. والعربى الهامشى نمط أساسى فى الإدراك الصهيونى للعرب. إن الصهاينة ينكرون وجود أية هوية سياسية للعرب عامة، وللفلسطينيين على وجه الخصوص أو أية مشاعر قومية من جانبهم، فالصهاينة فى إدراكهم للثورات العربية عليهم ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع إليها ليس حب الأرض أو الوطن أو التمسك بالتراث، فالدافع إليها هو التعصب الدينى، وقد كان الصهاينة يلومون المسيحيين العرب، أحيانًا، باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطانى، ويصورون المسلمين فى صورة الفريق الطيب الذى يمكن التفاهم معه، وكانوا أحيانًا أخرى يفترضون العكس، فيؤكدون أن المسلمين هم العدو الحقيقى، وأن المسيحيين هم الفريق الذى يبدى استعدادًا كبيرًا للتعاون. وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة إليهم مجرد غوغاء يتلاعب بها مثيرو الشغب من الإقطاعيين والأفندية ولاتحركها الدوافع القومية. ويرى سمحا فلابان أن وايزمان كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن تمرد هذه الجماهير ليس تعبيرا صادقًا عن حركة قومية خلاقة وإنما كانت تمليه الاعتبارات الإقطاعية القبلية الضيقة.

وإلى جانب هذا، كان الصهاينة يرون الفلسطينى أو العربى حيوانًا أو مخلوقًا اقتصاديًا محضا تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة. وإذا ، فيمكن حل المشكلة العربية (حسب هذا التصور) فى إطار اقتصادى

لايكون سياسيا بالضرورة، ولعل من الأمثلة الأولى على هذه الإستراتيجية الإدراكية رشيد بك، هذا العربى الذى تم تخليقه حسب المواصفات الصهيونية فى رواية هرتزل «الأرض الجديدة القديمة» ، فهو يؤكد أن الوجود الصهيونى قد عاد على العرب بالنفع الكبير، لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، كما أن الهجرة اليهودية كانت خيرًا وبركة، خصوصًا بالنسبة لملاك الأراضى لأنهم باعوا أرضهم بارباح كبيرة، وظل لفيف من الصهاينة يؤمنون إيمانًا راسخًا بإمكان التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التى سيجلبها الاستيطان الصهيونى، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية بعد إعطائهم التعويض الاقتصادى المناسب عن وطنهم. وكانت إحدى القناعات الإدراكية عند وايزمان أن تطور فلسطين سيؤدى إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية.

٤ – العربى الغائب :

إن ذكر العرب، ولو فى مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمنى بهم، ولكن الصهاينة يحاولون إخفاء العرب بإدخالهم فى مفهوم مقولة «الأغيار» المجردة، هذا الاتجاه يصل إلى قمته فيما يمكن أن نسميه مقولية «العربى الغائب»، فبدلا من الإخفاء الجزئى خلف مقولة مجردة، تصل محاولة الإخفاء إلى حد الإغفال الكامل، فالصهاينة أحيانًا لايذكرون العربى بخير أو شر، ويلزمون الصمت حيال الضحية،

ويُظهرون عدم الاكتراث الكامل بها (وهذه إحدى سمات الخطاب الصهيونى).

وإفراغ فلسطين من كل سكانها أو معظمهم (أى تغييبهم) هو أحد ثوابت الفكر الصهيونى، وهو عنصر مُتضمَّن بشكل صامت فى الصيغة الصهيونية الأساسية. وهذا أمر منطقى ومفهوم، إذ لو تم الاستيلاء على الأرض وبقى سكانها عليها لأصبح تأسيس الدولة الوظيفية مستحيلاً، ولتم تأسيس دولة عادية تمثل مصالح سكانها بدرجات متفاوتة من العدل والظلم، فيهودية الدولة (مع افتراض تغييب السكان الأصليين) هو ضمان وظيفيتها وعمالتها.

ومن هنا، كان اختفاء العرب حتميا، ومن هنا كانت الصفة الأساسية للاستعمار والاستيطان الصهيونيين هى كونهما استعمارًا استيطانيا إحلاليًا. فصهيونيته تكمن فى إحلاليته، كما أن إحلاليته هى التعبير الحتمى عن صهيونيته (ويهوديته المزعومة).

ورغم أن رصد مقولة «العربى الغائب» وتوثيقها أمر بالغ الصعوبة لأن ما هو غائب لا يمكن رصده وتوثيقه بالطريقة التقليدية التى تعتمد على الاقتباسات والنصوص وتحليلها، ومع هذا، فإن هناك عددًا كبيرًا من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها إلا فى إطار مقولة «العربى الغائب» ويمكن أن يندرج تحت هذا كل ذاك الحديث المستفيض عن الأرض المقدسة وإرتس يسرائيل وصهيون وأرض الميعاد، فهو حديث يستند فى نهاية الأمر إلى افتراض غياب فلسطين العربية، والحديث عن

استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية باعتبارها «عاليا» أى «صعود»، والحديث عنهم باعتبارهم «معبيليم»، أى يهود يدخلون فلسطين كما دخلها العبرانيون القدامى رغم كل الصعاب والعوائق، هو أيضًا حديث يفترض غياب العرب وغياب تاريخهم. بل إنه يمكن القول بأن المصطلح الصهيونى ككل (نفى، عودة، تجميع المنفيين . . . إلخ) يفترض مفهوم العربى الغائب، وقراءة اى نص صهيوني وفهم أى برنامج صهيونى أمر صعب جدا، إن لم يكن مستحيلاً، من دون افتراض مقولة العربى الغائب كمثل أعلى ونقطة تحقق.

ولنحاول الآن أن ننظر للواقع من خلال عيون مستوطن صهيونى يرى العالم من خلال هذه العدسات الإدراكية: « إن ظهر عربى على شاشة وعى، فإنه يتحدى خريطتى الإدراكية، فهو المفروض فيه أنه غير موجود، وإن تجاسر وطالب بحقوقه ونادى بتطبيق قرارات هيئة الأمم على إرتس يسرائيل، أرض الميعاد اليهودية، فهذا دليل على جهله وتخلفه، ولابد من تلقينه درسًا، وإن بدأ يتحرك نحوى- أنا اليهودى عضو الشعب المختار وصاحب الحقوق المطلقة- فهذا يعنى أنه إنسان مجنون وخطر لابد من القضاء عليه، فالعرب لا يفهمون سوى لغة القوة (وهذا هو أحد بنود الإجماع الصهيونى).

هنا يتحول العنف الإدراكى إلى عنف فعلى مسلح، أى إلى إرهاب، فتنطلق الصواريخ والمدافع والطائرات لتصبح فلسطين أرضًا بلا شعب، أو أرضًا يقطنها شعب لا سيادة له يعش داخل كانتونات تراقبه العيون

الصهيونية المسلحة لتضبط حركته وتجعله يتحرك داخـل حـدود الإدراك الصهيونى، وحينما يطالب الصهاينة الفلسطينيين بـالجلوس معـهم علـى مائدة المفاوضات فـهم يطلبـون منـهم ذلـك وهـم قـابعون داخـل إدراكـهم الصهيونى، فيعرضون عليهم سـلامًا صـهيونيًا حسـب شـروط صهيونيـة، يضمـــن استســـلام الفلســـطينيين، فـــإن لم يقبـــل الفســـطينيون بالسلام/الاستسلام، فإن جيش الدفاع الإسرائيلى سيتحرك ليدك المنـازل ويسـويها بـالأرض ليضمـن أن الواقـع الفلسـطينى يتفـق مـع الإدراك الصهيونى له.

الهاجس الأمنى وعقلية الحصار

ولكن لم يسمى جيش المستوطنين الصهاينة جيش الدفـاع الإسـرائيلى؟ يعود هذا بطبيعة الحال إلى تصور الصهاينة أن أرض فلسطين هى أرضـهم وأن الفلسطينيين دخلاء، ومن ثم فالبطش بالفلسطينيين وذبحـهم هـو مـن قبيل الدفاع عن النفس! ولكن ثمة بُعدًا آخر خفيًا للإدراك الصهيونى وهو ما نسميه الهاجس الأمنى وعقلية الحصار. ويعود الهاجس الأمنــى إلى أن المسـتوطنين الصهاينـة أدركـوا أن الأرض التـى يسـيرون عليـها ويدعـــون ملكيتها منذ آلاف السنين هى فـى واقـع الأمـر ليسـت أرضـهم، وليسـت أرضا بلا شعب كما كان الزعم، وأن أهلها لم يستسلموا كمـا كـان متوقعـا منهم، ولم تتم إبادتهم كما كان المفروض أن يحـدث، بـل إنـهم يقـاومون وينتفضون ويتزايدون فى العدد والكفاءات ولم يكفـوا عـن المطالبـة بشـكل صريح بالضفة والقطاع، ويشكل خفى بكل فلسـطين وبحـق العـودة لهـا،

وقرارات هيئة الأمم المتحدة الخاصة بحق العودة لاتزال سارية المفعول. ولم تُقبل إسرائيل عضوًا فى المنظمة الدولية إلا بعد تعهدها بتفيذ هذه القرارات ، ويساندهم فى هذا كله الشعب العربى، ومسألة العجز العسكرى العربى والتفوق العسكرى الإسرائيلى ليست مسألة أزلية، وقد أثبتت حرب ١٩٧٣ ثم المقاومة في لبنان، وبعدها الانتفاضة أن العرب قادرون على أن يعيدوا تنظيم أنفسهم ويهاجموا المستعمر ويُلحقوا به خسائر فادحة.

ثمة إحساس عميق لدى المستوطن الصهيونى بأن العربى الغائب لم يغب، وهو أحساس فى جوهره صادق، فالكيان الصهيونى محاصر بالفعل ومهدد دائما، والعرب في واقع الأمر لا يمكن «الثقة بهم»، لأن الجماهير العربية لن تقبل حالة الظلم باعتبارها حالة نهائية رغم توقيع معاهدات السلام الكثيرة! وأقصى ما يطمح إليه المستوطنون الصهاينة هدنة مؤقتة تنتهى عادةً بمواجهات عسكرية، فالصراع مع الكيان الصهيونى صراع شامل على الوجود، لأن وجود الشعب الفلسطينى لا يهدد حدود الدولة الصهيونية أو سيطرتها على أجزاء من الأرض الفلسطينية وحسب، وإنما يهدد وجودها كله، كل هذا يعمق إحساس المتوطنين الصهاينة بأن دولتهم كيان مشتول، فرض فرضا على المنطقة بقوة السلاح، وهم أول من يعرف أن ما أسس بالسيف يمكن أن يسقط به، والإسرائيليون دارسون نهمون لتجربة استيطانية سابقة تمت فى نفس المكان وهى تجربة حروب الفرنجة (الحروب الصليبية فى المصطلح الحديث). وممالك الفرنجة التى

دامت حوالى قرنين من الزمان، رحل اصحابها، ولم يبق من آثارهم سوى بعض الأطلال ومما يعمق مخاوفهم إحجام يهود العالم عن الهجرة والتكلفة المتزايدة للتكنولوجيا العسكرية، كل هذا يولد الهاجس الأمنى المرضى وعقلية الحصار المرضية، وهى حالة لا علاج لها داخل الإطار الصهيونى ومهما قدم العرب من تنازلات يظل الهاجس الأمنى قائما، وكأنه لا علاقة له بالواقع، فهو حالة إدراكية مرضية لها جذور عميقة فى الواقع.

وقد ولد هذا الهاجس الأمنى إحساسا عميقا باليأس لدى الإسرائيليين، والإحساس بأن حالة الحرب دائمة، ويظهر هذا الاستسلام الكامل فى كلمات موشيه ديان فى جنازة صديقه روى روتبرج الذى قتله الفدائيون الفلسطينيون، فقد قال وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلى الأسبق: «إننا جيل من المستوطنين ولانستطيع غرس شجرة أو بناء بيت، دون الخوذة الحديدية والمدفع، علينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل فى أفئدة مئات الآلاف من العرب حولنا، علينا أن ندير رؤوسنا حتى لاترتعش أيدينا، إنه قدر جيلنا، إنه خيار جيلنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وقساة، حتى لايسقط السيف من قبضتنا وتنتهى الحياة.

ومنذ بضع سنوات لاحظ الشاعر الإسرائيلى حاييم جورى بمرارة ما سماه «مركب اسحاق» وهو أن الإنسان الإسرائيلى يولد وفى داخله السكين الذى سيذبحه، كما بين جورى أن هذا التراب (أى إسرائيل)

لايرتوى، فهو يطالب دائما بالمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى، كما لو كانت أرض إسرائيل آلهة ثأر بذيئة، لا مجرد قطعة أرض أو إقليم، كما لاحظ الكاتب الإسرائيلى بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب، الذين يخدمون فى الجيش ، يشعرون أن أهلهم بالاشتراك مع الدولة يضحون بهم دون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت، ولذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هى تضحية علمانية بإسحق»، أى أنها تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى، والمؤرخ الإسرائيلى يعقوب تالمون يتحدث عن «عقم الانتصار»، بعد أن رأى الجيش الصهيونى ينتصر فى حرب تلو الأخرى ولا يحقق شيئا لأن الشعب الفلسطينى يرفض الاختفاء ولأن الشعب العربى لا يتوقف عن تأييد الفلسطينيين وأن الشعوب الإسلامية لا تزال متمسكة بالقدس وبأرض فلسطين.

وتتناول قصة «فى مواجهة الغابة» التى كتبها الروائى الإسرائيلى أبراهام يهوشوا، التى وصفت بأنها هدامة وانتحارية، بعض الأحداث فى حياة طالب يكتب دراسة عن حروب الفرنجة، وقد عُين بطل القصة الإسرائيلى حارسا لغابة غرسها الصندوق القومى اليهودى فى موقع قرية عربية أزالها الصهاينة مع ما أزالوه من قرى ومدن، وكانت كل شجرة فى الغابة تحمل أسم احد المساهمين المتحمسين من الصهاينة التوطينيين من يهود الخارج، ورغم أن البطل ينشد الوحدة، إلا أنه يقابل عربيًا عجوزًا أبكم من أهل القرية يقوم برعاية الغابة وتنشأ علاقة حب وكراهية بين العربى والاسرائيلى، فالإسرائيلى يخشى انتقام العربى، ومع ذلك

فإنه يجد نفسه منجذبا إليه بصورة غير عادية، بل يكشف الحارس المعيَّن من قبل الصندوق القومي اليهودى أنه يحاول «بلا وعى» مساعدة العربى فى إشعال النار بالغابة، وفى النهاية، عندما ينجح العربى فى أن يضرم النار فى الغابة كلها، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة.

والإحساس باليأس قد يؤدى فى النهاية إلى الفرار والهزيمة ، ولكنه فى المراحل الأولى يؤدى إلى مزيد من العنف الفكرى الذى يؤدى بدوره إلى مزيد من الإرهاب الفعلى، وكلما زادت المقاومة الفلسطينية زاد البطش إلى أن يصل المستوطن الصهيونى إلى اللحظة التى يدرك فيها أن العنف لن يجدى فتيلاً أمام المقاومة وأن تحالف إسرائيل الاستراتيجى مع الولايات المتحدة والعالم الغربى (وهذه هى آخر بنود الإجماع الصهيونى) لن يفيدها كثيرًا فى محاولة قمع الفلسطينيين، عندئذ سيمارس هذا المستوطن تحولاً إدراكيًا إذ إنه لن يمكنه الاستمرار فى الادعاءات أمام نفسه بأن فلسطين هى إرتس يسرائيل وأنها أرض بلا شعب تنتظر عودته منذ آلاف السنين، عندئذٍ ستسقط الأسطورة وتبدأ النهاية.

لا نهاية للتاريخ

فى ٢١ من أكتوبر عام ١٩٧٣ كتبت فى جريدة الأهرام مقالاً بعنوان «لا نهاية للتاريخ» أشرت فيه إلى أنه بغض النظر عن نتيجة الحرب فإن نظرية الأمن الإسرائيلية المبنية على فكرة الحدود الجغرافية الآمنة والتى تسقط عنصر الزمان قد انتهت، لأن العرب أثبتوا مقدرتهم على تطوير

أنفسهم بمرور الزمن وحينما حانت اللحظة المواتية، تحركوا وألحقوا الهزيمة بالعدو الذى أدرك بعدها أن الأمن لا يوجد فى المكان وحسب، وإنما يوجد فى الزمان أيضًا، وأنه ليس مسألة خاصة بالعلاقة بالجبال والحواجز المائية والترابية، وإنما أمر يتعلق بالعلاقة مع البشر، وقد أنجزت انتفاضة ١٩٨٧ شيئًا من هذا القبيل، فمن خلال فعل المقاومة، اضطر الإسرائيليون إلى الاعتراف بالوجود الفلسطينى، وجود هزيل، محاصر من كل مكان، ولكنه وجود حقيقى، أى أن الخريطة الإدراكية الصهيونية تم تعديلها بشكل جذرى واختفت مقولة «العربى الغائب» ومع هذا استمرت المقولات الأخرى، وهذا ما تكفلت به انتفاضة الأقصى٢٠٠٠ (التى يطلق عليها البعض اسم انتفاضة الاستقلال) فقد تركت جرحًا غائرًا فى الوجدان الصهيونى أكثر عمقًا وجذرية من أى جرح سابق، فلم يعد بوسع الصهيونى أن يزعم أن العربى شخص متخلف هامشى أو عدو أزلى لا عقلانى لليهود. فقد رأى بعينيه السكان الأصليين، الفلسطينيين، وقد هبوا هبة رجل واحد يدافعون عن حقوقهم المشروعة التى لا يمكن التنازل عنها، وأرسلوا له حجرًا يحمل رسالة لا يمكن أن تُتهم بالتخلف أو الهامشية، رسالة تخبره أن وهم السلم المبنى على الظلم والبطش قد انتهى، وأنه لاسبيل أمامه إلا السلام المبنى على العدل والذى لا ينطلق من الإجماع الصهيونى ونظريات الحقوق اليهودية المطلقة. كما رأى الشعب العربى والشعوب الإسلامية تتحرك بتلقائية غير عادية لمساندة الشعب الفلسطينى فى كفاحه بشتى السبل

(ولاشك أن هذا أرسل رسالة واضحة جلية لصُنَّاع القرار فى الغرب الذين كانوا قد شطبوا من حساباتهم ما سموه «الشارع العربى» و«الشارع الإسلامى»، أى الرأى العام العربى والرأى العام الإسلامى، ومما لا شك فيه أنهم سيعيدون حساباتهم.

إن الحلم الصهيونى، بهذا المعنى ، قد تم تقويضه وإلى الأبد وانتهى الوهم بأنه يمكن للمستوطنين الصهاينة التعايش مع العرب حسب شروطهم العنصرية. ومن الآن فصاعدا، مهما يحدث بعد انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠، حينما سينظر الصهيونى إلى العربى بعيونه المسلحة فإنه سيرى مشروع انتفاضة، وسيرى يدًا تمسك بحجر، وأن هذا العربى الذى يسير أمامه فى سلام، والذى دخل معه فى مفاوضات سلام ما يقرب من عقد من الزمان، هو فى واقع الأمر عربى يلتقط أنفاسه ليعود ليقاوم وليرفع رايات العدل والصدق فى زمن يكثر فيه الكذابون والجبناء. وهذا هو الإنجاز الأعظم لانتفاضة الاستقلال. والله أعلم.

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًّا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًّا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشـيكات بإدارة الإشـتراكات بمؤسسـة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.



القرصنة الوراثية

د . أحمد مستجير

فهرس

رقم الصفحة

الفصل الثالث

إشكالية الإحصاءات

الفصل الرابع

الهجرة والإستيطان

الفصل الخامس

علاقة الصهيونية بالمسيحية

رقم الصفحة

رقم الإيداع		٢٠٠١/١٥٢٧
الترقيم الدولى	977-02-6101-7	ISBN

١/٢٠٠٠/١١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)





ثمة مصطلحات ومفاهيم كثيرة اخترقت مجالنا السياسى مثل « الشعب اليهودى » و « الخصوصية اليهودية » و« المنفى » و « ارتباط اليهود الأزلى بأرض الميعاد » . وقد وصل الاختراق درجة أن الكثيرين لا يستطيعون تصديق أن الصهيونية فى حالة أزمة وأن الانسحاب الصهيونى من جنوب لبنان ، ثم انتفاضة الأقصى ، قد تركا جرحا غائرا فى الوجدان الصهيونى/ الإسرائيلى .

والدراسات التى يضمها هذا الكتاب هى محاولة لتفكيك وإعادة تركيب بعض هذه المفاهيم والمصطلحات ، حتى تتعمق رؤيتنا للعدو الصهيونى ، وحتى ندرك مواطن قوته وضعفه ، ومن ثم يمكننا تحسين مقدرتنا على التنبؤ بسلوكه والتصدى له .



دار المعارف

٤٠٧٢٠٦/٠١

